

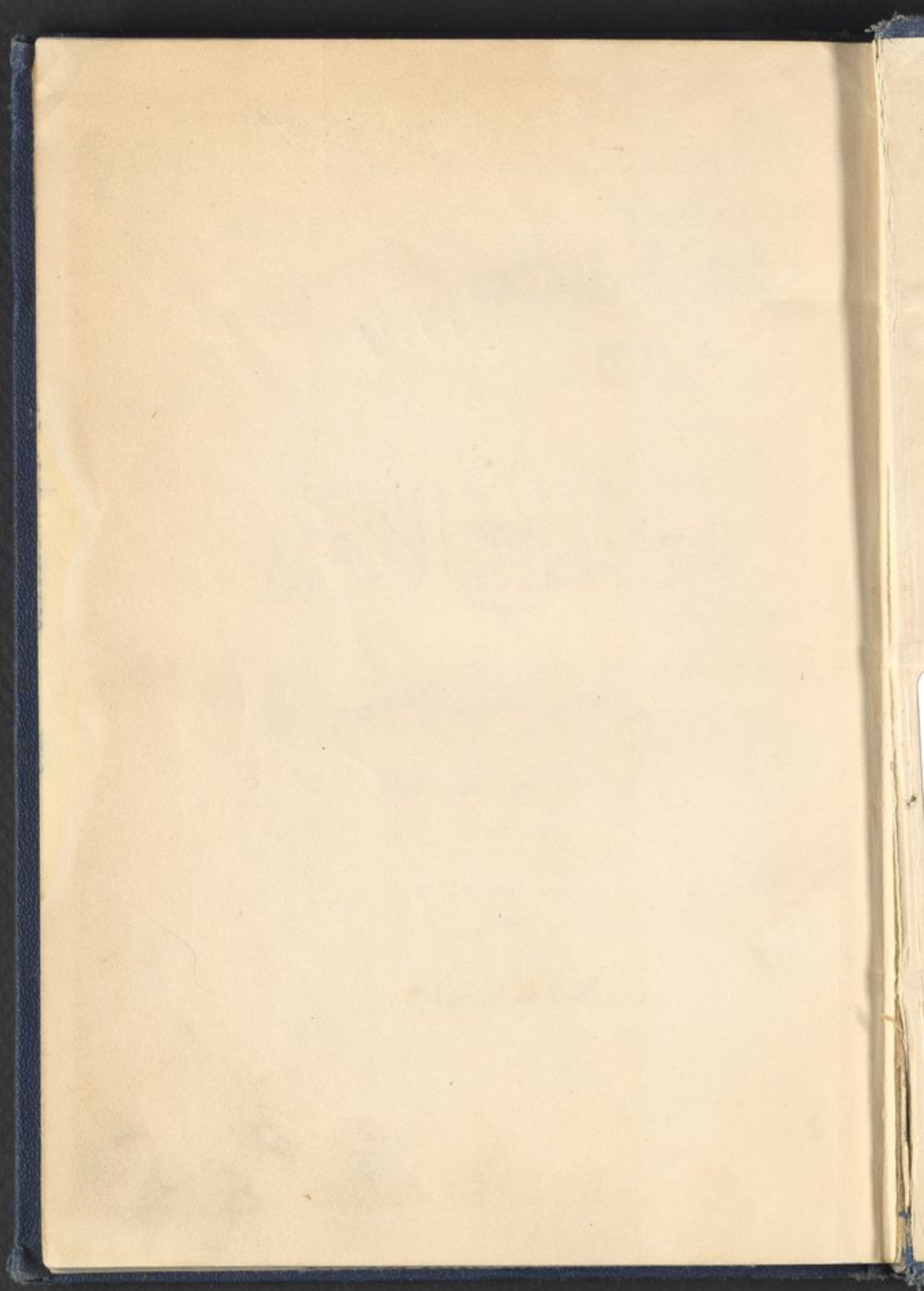


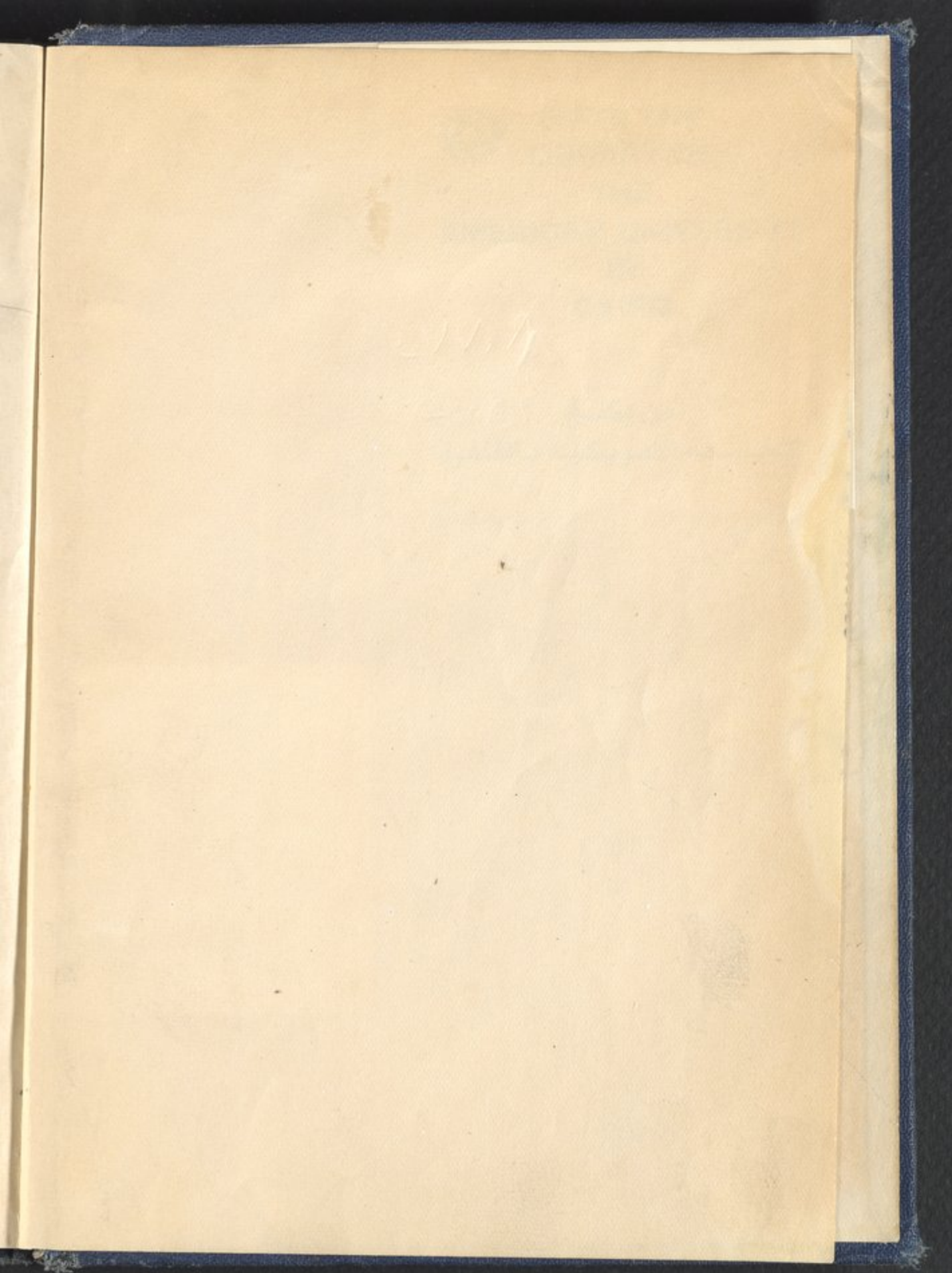
3 8534 00973 1815



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





Inān, Muhammad 'Abd Allāh
Tārīkh al-jāmi' al-azhar

عبد الأزهري الألفي

سنة ١٣٦١ هـ

LG
511
C45
I52
1942

تاريخ الجامع الأزهر

في العصر الفاطمي

مع تكملة له حتى العصر الحاضر

بقلم

محمد عبد الله عنيان

٤٧٧، ٨
ت. ٤٢

الطبعة الأولى

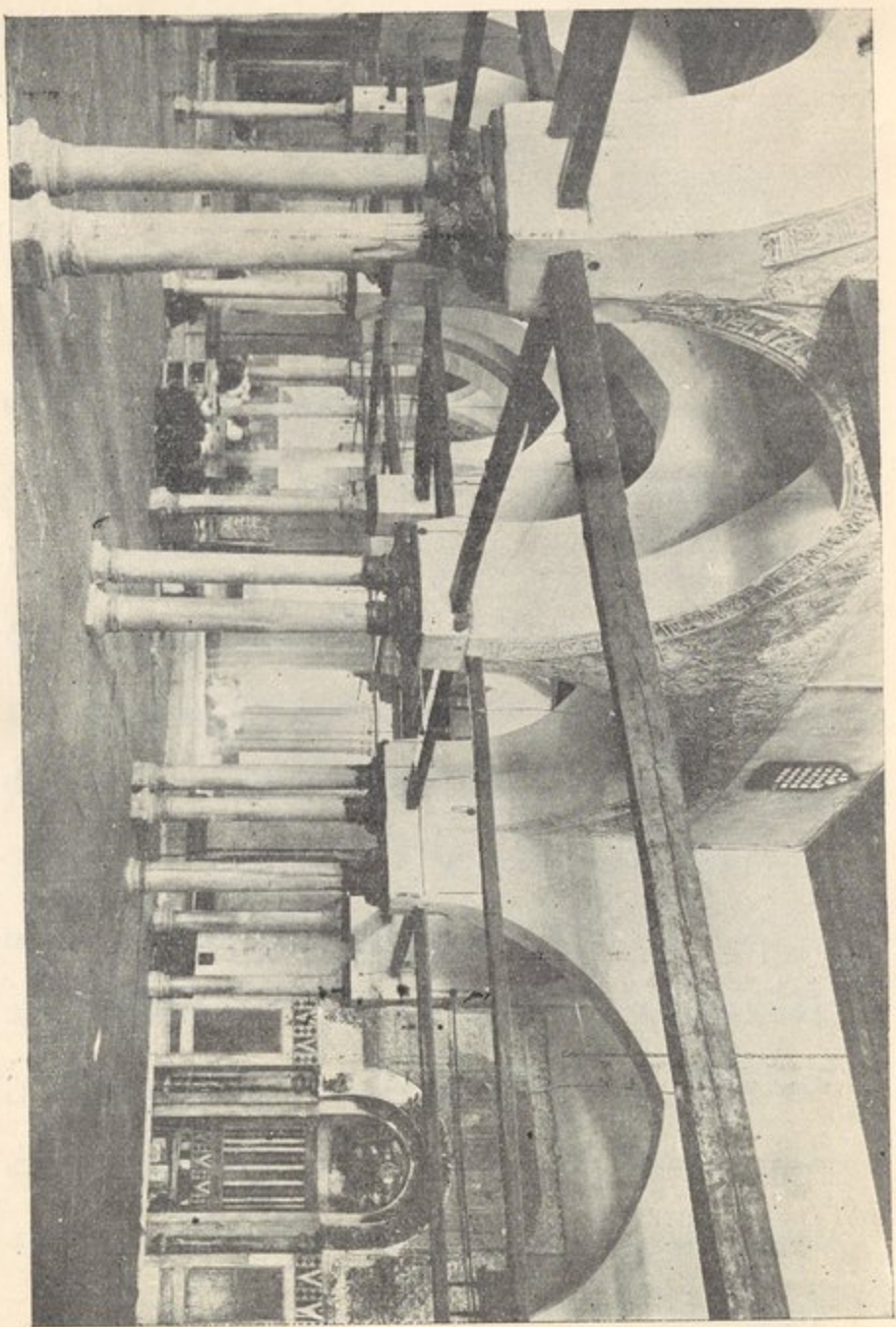
سنة ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

الحقوق كلها محفوظة

44070

القاهرة

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



« تصوير ادارة حفظ الآثار العربية »

الجامع الأزهر — الحرم الداخلي

1892-1893

1894-1895

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كان لى منذ أعوام شرف المساهمة فى الدعوة إلى إحياء عيدين قوميين جليلين ، هما عيد القاهرة الألفى ، وعيد الجامع الأزهر الألفى .

وقد عنيت دوائر الأزهر حينئذ بأمر هذه الدعوة ، وبدأت فعلا بتنظيم لجان خاصة لتعنى بشئون العيد الألفى للجامع الأزهر ، ومنها لجنة لوضع تاريخ شامل للأزهر . ولكنها عدت بعد ذلك عن مشروعها لأسباب لا نعرفها .

أما الدعوة إلى إحياء عيد القاهرة الألفى ، فلم تحدث صداها إلا فى وقت متأخر ؛ وحينئذ عنيت بأمرها الحكومة كان موعد العيد الألفى لإنشاء القاهرة قد اقترب ، فأثرت الحكومة أن تعدل عن مبدأ الإنشاء إلى مبدأ آخر ، يتيح لها فسحة من الوقت تستطيع أن تتمكن فيها من وضع برنامج لا تثق بهذا العيد القومى الخطير .

ورأت لجنة العيد الألفى أن تسترشد في تحديد موعد هذا العيد برأى بعض الهيئات العلمية ، فرأت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في مذكرتها ، أن يكون الاحتفال به في رمضان سنة ١٣٦٢ هـ أعنى لمضى ألف عام على مقدم المعز لدين الله الى مصر ودخوله مدينة القاهرة عاصمة ملكه الجديد ، وتحول مصر بذلك من ولاية الى دار خلافة .

وكان لى أيضاً شرف المساهمة في الإدلاء بالرأى الى لجنة العيد الألفى ؛ وكان من الواضح أن القول باعتبار واقعة دخول المعز لدين الله مدينة القاهرة في السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ واتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية ، أساساً لتحديد عمر القاهرة الألفى وهو الرأى الذى أدلت به كلية الآداب ، هو قول لا يسوغ الأخذ به في هذه المناسبة التاريخية ، إذ هو يتعلق بقيام الخلافة الفاطمية بمصر ، ولم تكن ذكرى الخلافة الفاطمية محل تفكير ، والمقصود بإحياء الذكرى هو العاصمة الفاطمية ذاتها .

ولما كان الرأى المفضل في معظم الأعم لتخليد ذكرى الأمصار والمنشآت العظيمة ، هو اعتبار تاريخ الإنشاء لاحتساب أعمارها ، ولما كانت القاهرة المعزية قد وضعت خططها في مساء يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فإنها وفقاً لهذا المبدأ ، تستكمل عمرها الألفى في السابع

عشر من شعبان سنة ١٣٥٨ هـ الموافق لليوم الثاني من أكتوبر
سنة ١٩٣٩ .

ولكن الأخذ بهذا المبدأ لم يكن ميسوراً لضيق الوقت
ولاعتبارات كثيرة أخرى ، ولهذا اتجه رأى الى الأخذ بتاريخ
الانتهاء من بناء القاهرة لاحتساب عمرها الألفى .

وقد بسطتُ هذا الرأى فى مذكرتى التى تقدمت بها الى لجنة
العيد الألفى ؛ ولما لم يكن لدينا عن هذه الواقعة نصوص صريحة
فقد رجعنا فى تحديدها الى منطق بعض النصوص والوقائع التاريخية
المتعلقة بإنشاء القاهرة ، وإلى بواعث هذا الإنشاء وظروفه^(١) . وعلى
ضوء هذه النصوص والوقائع نستطيع مع الاطمئنان العالى أن نضع
تاريخ الفراغ من بناء العاصمة الفاطمية فى النصف الأول من
سنة ٣٦٠ هـ . وطبقاً لهذا الرأى تكون القاهرة المعزية قد أتمت عمرها
الألفى فى النصف الأول من سنة ١٣٦٠ هـ الموافق للنصف الأول
من سنة ١٩٤١ .

(١) يراجع ما ذكره المقرئى فى الخطط عن بواعث إنشاء القاهرة
(ج ٢ ص ١٨١) ، وعن بناء القصر الفاطمى (ج ٢ ص ٢١٥) ، وعن
باب السعادة أحد أبواب القاهرة (ج ٢ ص ٢١٣) ، وما ذكره صاحب
النجوم الزاهرة عن إتمام بناء القاهرة قبل إتمام الجامع الأزهر (ج ٤ ص ٣٢) .

أما تعيين العيد الألفى للجامع الأزهر فلم يتعرض لمثل هذا الجدل والغموض . ذلك أننا نعرف تاريخ البدء في إنشاء الجامع الشهير وكذلك تاريخ الفراغ منه ، ولم يكن علينا في تحديد عمره الألفى إلا أن نختار لاحتساب هذا العمر بين تاريخ إنشائه وتاريخ الفراغ من بنائه وافتتاحه للصلاة .

وكان البدء في إنشاء الجامع الأزهر بعد أن وضعت خطط القاهرة المعزية بنحو تسعة أشهر في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وكان الفراغ من بنائه وافتتاحه للصلاة بصفة رسمية في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ .

فإذا اخترنا تاريخ الإنشاء فإن الأزهر يكون قد أتم عمره الألفى في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ الموافق ١٦ يونيه سنة ١٩٤٠ . وإذا اخترنا تاريخ إتمامه وافتتاحه للصلاة فإن هذا العيد يقع في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ١٣٦١ هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٢ .

ونحن نؤثر فيما يتعلق بالجامع الأزهر أن يكون احتساب عمره الألفى من تاريخ افتتاحه للصلاة ؛ فهذا الافتتاح هو الذى أسبغ عليه صفته الدينية بتحقيق القصد من إنشائه ، وصفته الرسمية التى جعلته مسجد الدولةسمى .

وانه لما يبعث الى أشد الأسف أن تكون ظروف المحنة العالمية الحاضرة قد حالت دون الاحتفال بهذين العيدين القوميين العظيمين بالرغم مما اتخذ لإقامتهما من الخطوات التمهيدية كتأليف اللجان الخاصة ، والشروع في وضع البرامج العلمية والاجتماعية ؛ على أنه لم يكن من المستحيل على ولاية الأمر أن ينظموا لإحيائهما ما تسمح به الظروف الحاضرة ؛ وقد كان الإحتفال بهما حتى في هذه الحدود الضيقة أفضل بكثير من هذا الإغضاء المطلق .

وقد سنحت لي فرصة للقيام ببعض بحوث تتعلق بتاريخ الجامع الأزهر في العصر الفاطمي ؛ وكنت أود لو أتيحت لي فرصة لكتابة هذا التاريخ خلال جميع العصور بنفس الإفاضة . ولكن ظروف الوقت العسيرة ، واضطراب الأذهان ، وافتقار المراجع ، وفداحة المهمة ، حالت كلها دون تحقيق هذه الأمنية ، فاكتملت بأن أقدم تاريخ الأزهر في العصر الفاطمي ، تحية لذكرى المعهد الشهير لمناسبة عيده الألفي .

ولكني رأيت مع ذلك أن أحاول وصل الماضي بالحاضر في فصول تكميلية استعرضت فيها أحوال الأزهر منذ العصر الفاطمي إلى عصرنا بإيجاز ؛ وعנית عناية خاصة بالوقوف عند بعض النقاط والمواطن الهامة في تاريخه في تلك العصور ، وأتبع ذلك بطائفة

من المقارنات المتعلقة بالماضى والحاضر .
وقد غدا الأزهر فكرة ونظاماً ، ولهذه الفكرة الألفية وهذا
النظام الألفى نورخ ؛ أما الصرح الألفى القديم — الجامع الأزهر —
فقد رأينا أن نترك الإفاضة فى تاريخه وخواصه الأثرية للأثرين .
فإلى ذكرى المعهد الجليل أقدم هذا المجهود المتواضع فى تاريخ
عصر من أهم عصوره — هو عصر الإنشاء والنمو — راجياً أن
يكون نواة لجهود أخرى تبذل لاستكمال تاريخه فى جميع العصور .

محمد عبد الله عثمان

القاهرة فى جمادى الأولى سنة ١٣٦١ هـ
الموافق يونيه سنة ١٩٤٢ م

الفصل الأول

القاهرة المعزية والجامع الأزهر

القواعد الإسلامية الأولى ونظامها . الفسطاط ومسجدها الجامع .
مدينتا العسكر والقطائع . إنشاء القاهرة المعزية والجامع الأزهر .
حكمة الإنشاء وسبب التسمية . معالم الأزهر والمدينة الفاطمية .
تجديد الأزهر وعماراته في مختلف العصور

— ١ —

كان الجامع الأزهر من غرس الدولة الفاطمية ، أينع ثمره ،
وتجددت نصرته ، على كر العصور ، وما زال بعد ألف عام أعظم
الآثار الباقية التي خلفتها الدول الإسلامية بمصر .

وكان قيام الأزهر في نفس الوقت الذي قامت فيه الدولة
الفاطمية ذاتها ؛ أنشئ غداة ظفرها بملك مصر وغداة قيام القاهرة
عاصمتها الجديدة ، وسمى باسمها حيناً من الدهر . ثم خبا نجم الدولة
الفاطمية بعد أن سطع مدى قرنين ، وذوى غصنها ، ومحيت آثارها
المادية والمعنوية بسرعة ؛ ولكن الأزهر نجى من عواقب الحنة ،
واستطاع أن يخرج من غمر الانقلاب بعد فترة من الإعراض

والركود سليماً قويا ، وأن يتابع حياته الطويلة غير حافل بما يعترضه من الصعاب والعثرات .

وقد عرفت مصر قبل قيام القاهرة المعزية ثلاث قواعد أو عواصم إسلامية ؛ أولاها فسطاط مصر التي أنشئت في سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) عقب الفتح الإسلامي ؛ والثانية مدينة العسكر التي أنشأها الجند العباسيون إلى جانب الفسطاط عقب انتزاعهم مصر من يد الأمويين في سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ؛ والثالثة مدينة القطائع التي أنشأها أحمد بن طولون في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) لتكون عاصمة الدولة الجديدة . كذلك عرفت مصر قبل قيام الجامع الأزهر ثلاثة مساجد جامعة ، هي المسجد الجامع أو جامع عمرو^(١) فجامع العسكر ثم جامع ابن طولون أو بعبارة أخرى كانت كل قاعدة من هذه القواعد الإسلامية المتعاقبة تزود عند قيامها بمسجدها الجامع أو جامعها الرسمي الخاص .

وهذه ظاهرة معروفة في خطط القواعد الإسلامية الأولى . ولم يكن اتباعها وليد المصادفة ، بل كان أثراً من آثار السياسة الموضوعة لإنشاء الأمصار الإسلامية في البلاد المفتوحة ، وهي سياسة ترجع

(١) وقد عرف جامع عمرو بعدة أسماء أخرى منها الجامع العتيق وجامع مصر ، ومسجد أهل الراية وغيرها .

إلى عصر عمر ذاته ، كتب بها عمر إلى الولاة ومنهم عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولايتها ، بأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً للجماعة^(١) . واتبعت هذه السياسة في خطط القواعد الإسلامية الأولى ، مثل البصرة والكوفة ومدن الشام والفسطاط . فحينما تقوم العاصمة الإسلامية الجديدة يقوم في وسطها المسجد الجامع ، وتقام من حوله خطط القبائل المختلفة . وكانت هذه المساجد الجامعة تحمل منذ البداية طابعاً رسمياً ؛ وكما أن العواصم الإسلامية الجديدة كانت تعتبر رمزاً لظفر الإسلام فكذلك المساجد الجامعة كانت تعتبر رمزاً لسيادة الإسلام الروحية ، ومنبراً للدين الجديد والرسالة الجديدة .

هكذا كان شأن الفسطاط أول عاصمة للإسلام في مصر . فقد كان قيامها رمزاً لظفر الإسلام السياسي بافتتاح قنطرة جديد من أقطار الدولة الرومانية . وكان مسجدوها الجامع رمزاً لسيادة الإسلام الروحية حينما كانت تسود النصرانية . وكان لهذا المسجد الجامع فوق ذلك صبغته الرسمية ؛ فقد كان مركزاً لصلاة الجماعة التي لبثت عصراً خُطة خاصة إلى جانب خطط الحرب والقضاء والخراج . وكان يلي

(١) خطط المقرئى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ، ص ٤ ، وحسن المحاضرة

للسيوطى ج ٢ ص ١٤٩ .

أمامته في الصلوات الخمس وفي صلاة الجمعة وخطبتها في عصر الفتح الأول أمير مصر ذاته ؛ فكان الأمير يجمع بين الصلاة والخراج في أحيان كثيرة ؛ وأحياناً يُسند الخراج إلى شخص آخر ويتولى الأمير الصلاة إلى جانب خطة الحرب (الحكم) ؛ وكان الأمير يستخلف عنه في الصلاة صاحب الشرطة إذا تعذر عليه إقامتها بنفسه^(١) . كذلك كان المسجد الجامع مركز الدعوات والخطب والمجالس الرسمية ؛ وبه يعقد ديوان الخراج ؛ وكان مركز القضاء الأعلى يجلس به قاضي القضاة يومين في كل أسبوع ؛ وتقل في الأوامر والمنشورات والسجلات ، واستمر ذلك عصوراً متوالية^(٢) .

ثم غدا المسجد الجامع بمضى الزمن وظروف العصر أيضاً مركز الحلقات العلمية والأدبية ، وأضحت هذه الصفة الجامعية من بعض مهامه وصفاته . وكانت المساجد الجامعة تختص بهذه الصفة العلمية في عصر لم تعرف فيه معاهد الدراسة المنظمة التي حفلت بها الأمصار الإسلامية فيما بعد . وهكذا كان شأن المسجد الجامع ، فقد كان منذ إنشائه قلب القسطاط الفكري ، وكان أهم مركز للدراسة . وكانت حلقاته إلى جانب الحلقات الخاصة أشهر المجتمعات العلمية والأدبية

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٨٣ . (٢) الخطوط ج ١ ص ١٣٢
وج ٤ ص ١٦ و ٤٣ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

العامة . وقد لبثت ساحاته مدى عصور ندوة فكرية أدبية جامعة ،
وفيهما كانت توجه حركة التفكير والآداب في مصر الإسلامية .
بل هنالك ما يدل على أن المسجد الجامع كان يقوم بمهمة
الجامعية في دراسة الفقه بطريقة منظمة ؛ فقد أنشئت به منذ أوائل
القرن الثالث عدة زوايا يدرس بها الفقه على مختلف المذاهب ،
ولكل زاوية أستاذ يجرى عليه الرزق ، وكان منها الزاوية الشهيرة
التي تنسب للإمام الشافعي ؛ واستمرت هذه الزوايا عصوراً ، واستمر
المسجد الجامع قائماً بمهامه العلمية حتى قيل إن حلقاته بلغت في
منتصف القرن الثالث زهاء خمسين ^(١) .

ولما أقيمت مدينة العسكر الى جانب مدينة القسطاط ، وأقيم
جامع العسكر الى جانب المسجد الجامع حسبما قدمنا كان ثمة في
إقامة المدينة الجديدة معنى لظفر العباسيين السياسى ، وفي إقامة
الجامع الجديد معنى لظفر الدعوة العباسية ؛ وكانت العسكر وجامعها
يمثلان ظفر الدولة الجديدة من الوجهتين السياسية والدينية .
ونستطيع أن نتبين هذا المعنى في قيام مدينة القسطاط عاصمة
الدولة الطولونية الجديدة ، وإن لم يكن ملحوظاً في إقامة مسجدها
الجامع (جامع ابن طولون) لأن الدولة الطولونية لم يكن لها لون

(١) الخطط ج ٤ ص ٢٠ و ٢١ .

دينى خاص . بيد أنه لا ريب أن إنشاء القطائع ومسجدها الجامع يرجع إلى نفس المغزى السياسى والروحى الذى سبقت الإشارة إليه وهو التنويه بسلطان الدولة الجديدة وسيادتها .

كان قيام القاهرة المعزية أسطع مثل لتطبيق هذه السياسة التقاليدية والتنويه بهذا المغزى السياسى والروحى . وكما أن الفتح الفاطمى كان ذروة الصراع بين الدولتين العباسية والفاطمية فكذلك كان ذروة الصراع بين دعوتين خصيمتين ؛ وكان غم الفاطميين لمصر ذروة هذا الظفر الذى جنوا ثماره بعد معركة دامت فى الخفاء زهاء قرنين ، وأسفرت عن قيام هذه الدولة العبيدية التى وثبت فى المغرب وثبتها الأولى ، واجتاحت مُلك الأغلبة ؛ ثم زحفت قواتها الفتية على مصر لا لتسحق فيها فقط ملك بنى الأخشيذ المتداعى ، بل لتسحق فيها أيضاً دعوة بنى العباس التى كانت تدين بها مصر حتى فى ظل دول مستقلة كالدولة الطولونية ، والدولة الأخشيذية ، ولتقيم مكانها دعوتها الشيعية الإمامية أو دعوة آل البيت التى كانت تحمل شعارها ولواءها .

وكان الفتح الفاطمى لمصر فى عهد المعز لدين الله رابع الخلفاء

العبيدين بالمغرب . ودخلت الجيوش الفاطمية مدينة مصر
(الفسطاط) بقيادة جوهر الصقلي في السابع عشر من شعبان سنة
٣٥٨ هـ (٧ يولييه سنة ٩٦٩) ؛ وشقها الجيش الظافر عند مغيب
الشمس ؛ ثم عسكر في الفضاء الواقع تجاهها نحو الشمال الغربي .
وفي نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر سيده المعز أول
خطة في مواقع المدينة الجديدة التي اعتزم الفاطميون إنشاؤها ،
لتكون لهم في مصر قاعدة ومعقلا ، وحفر أساس قصر جديد في
نفس الفضاء الذي نزل فيه جيشه فكان هذا مولد القاهرة المعزية .
واختطت القبائل الشيعية حول القصر كل قبيلة خطة عرفت بها ،
وأقيم حولها جميعاً سور منيع وسميت المدينة الجديدة بالقاهرة تفاؤلاً
وتيمناً بالنصر^(١) . وترجع بعض الروايات هذه التسمية الى قصة
فلكية تتعلق بطالع المدينة إذ وضع أساسها حينما كان المريخ في
الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر . وقيل أن جوهر اسمى
المدينة الجديدة أولاً بالمنصورية فلما قدم المعز الى مصر غير اسمها
وسماها القاهرة . وقيل إن المعز حينما وجه الخطاب الى جوهر وهو
على رأس الجند الذهاب الى مصر قال له : « ولتدخلن الى مصر
بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٨ .

مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»^(١) ، وقال ابن سعيد إنها سميت كذلك لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها ، وإن منها يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم ، وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به^(٢) ، وقيل غير ذلك . وإرجاع التسمية الى التفاؤل والتمين بالنصر أرجح وأدل على المغزى المقصود . فقد كانت المدينة الجديدة عنواناً لظفر الدولة الفاطمية بافتتاح مصر ذلك القطر الغني الزاهر الذي لبثت حيناً تتوق الى افتتاحه واغتنامه ، وظفرها بمحو الدعوة العباسية من قطر من أهم الأقطار الاسلامية . ومن جهة أخرى فقد كان معنى التفاؤل والتمين ملحوظاً في كونها قد أقيمت لتكون معقلاً للفاطميين في مصر لرد خطر القرامطة الذين سادت دعوتهم بلاد العرب يومئذ ، واجتاحوا الشام مراراً وأصبحوا خطراً على مصر ذاتها .

وأقيم بالعاصمة الجديدة مسجد جامع على نحو ما اتبع في إنشاء القسطنطينية والعسكر والقطائع وبدى بإنشائه في ٢٤ من جمادى الأولى

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٠٤ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤١ .

(٢) الخطط عن ابن سعيد ج ٢ ص ١٨٧ . والظاهر أن المقرئ يخلط

هنا بين كتابي ابن سعيد الاندلسي « المغرب في حلى المغرب » ، « والمشرق في حلى المشرق » إذ ينسب ما ينقله هنا عنه الى المغرب مع أن المرجح أنه قالها في المشرق .

سنة ٣٥٩ هـ (أبريل سنة ٩٧٠ م) . وإلى هذا التاريخ أيضاً يرجع بعض المؤرخين نشأة القاهرة المعزية . بيد أننا نرى مع المقرئى أعظم مؤرخى الخطط المصرية أن مبعث القاهرة يرجع الى وضع خططها الأولى ووضع أساس القصر الفاطمى فى شعبان سنة ٣٥٨^(١) ولم يكن ذلك المسجد الجامع الذى أنشأه جوهر الصقلى فى القاهرة المعزية الى جانب القصر الفاطمى سوى ذلك الجامع الشهير — الجامع الأزهر — الذى قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها الجديدة وأن يبقى على ممر الدهر أثراً خالداً للدولة التى شادته .

وتم بناء الجامع الأزهر فى عامين وثلاثة أشهر وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) . وكانت الحكمة واضحة فى إنشاء المسجد الجديد بل كانت أشد وضوحاً فى المقصد والغزى من أية فرصة سابقة ، فقد كانت الدولة الفاطمية دولة الإمامة الشيعية وكان الجامع الأزهر أول مسجد أقامته الشيعة بمصر . ومن ثم فقد كان قيام الجامع الأزهر رمزاً لسيادة دعوة دينية جديدة هى الدعوة الشيعية كما كانت القاهرة المعزية رمزاً لظفر الدولة الجديدة وسيادتها .

وسمى المسجد الجديد بجامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة .

(١) الخطط ج ٢ ص ١٧٩ .

وأما تسميته بالجامع الأزهر فالظاهر أنها لم تحدث إلا في تاريخ متأخر . بل هناك ما يدل على أن التسمية الأولى أعني جامع القاهرة هي التسمية التي كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمي . ذلك أن معظم مؤرخي هذا العصر وفي مقدمتهم المسبّحي وابن الطوير وابن المأمون يذكرونه دائماً باسم جامع القاهرة وقلماء يشيرون إليه باسم الجامع الأزهر . وحتى في العصور المتأخرة حتى القرن الثامن الهجري نرى هذا الاسم أي جامع القاهرة يطلق عليه في كثير من المواطن إلى جانب اسمه الآخر أي الجامع الأزهر .

والظاهر أن الجامع الأزهر أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية في عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمي اسم الجامع الأزهر . وأما أصل التسمية فالظاهر أنها ترجع إلى اسم السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله وزوج أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وهي التي يرجع الفاطميون نسبتهم إليها .

وعلى أي حال فقد استمر مسجد القاهرة الجامع يعرف بهذين الاسمين حتى عصر متأخر ؛ وحتى في عصر المقرئ صاحب الخطط أعني في أوائل القرن التاسع نراه يعرف بالاسمين ؛ ثم تقلص الاسم القديم أعني جامع القاهرة شيئاً فشيئاً وغلب عليه اسم الجامع



عقود الجامع الأزهر « تصوير إدارة حفظ الآثار العربية »

الأزهر أو جامع الأزهر حتى عصرنا^(١).

وما زال الجامع الأزهر يحتل الموقع الذي أقيم فيه منذ ألف عام وما زالت فيه بقية من أبنيته الفاطمية الأولى تحتل مكانها الأول داخل الصرح القائم وهي تكاد تبلغ نصف المسجد الحالي^(٢). وقد وفقت إدارة الآثار العربية أخيراً إلى الكشف عن رأس المحراب الفاطمي القديم ، وقد كان مغطى بغطاء خشبي يرجع إلى عصر الملك الظاهر بيبرس ، فظهرت بانزعاه زخارف ونقوش فاطمية يرجح أنها ترجع إلى عهد إنشاء المسجد الأول ، أعني إلى عهد جوهر والمعز .

وكان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة على النحو الذي كان متبعاً في إنشاء القواعد الإسلامية

(١) راجع الخطط ج ٢ ص ١٨٠ و ١٨١ و ٢٩٠ و ٣٤٢ و ٣٩٢ . وفي ابن خلكان إشارة تدل على أنه حتى عصره (القرن السابع) كان الجامع الأزهر يعرف بالاسمين وان الأزهر لم يكن هو الاسم الغالب عليه (ج ١ ص ١٤٩ في ترجمة القائد جوهر)

(٢) يمكن أن نحدد المسجد الفاطمي القديم من الجهة الشرقية بمقصورة عبد الرحمن كـتـخـدا والغربية بنهاية الصحن الكبير والبحرية بالمدرسة الجوهريية ومرافق الجامع ، والقبليية بشارع الشيخ محمد عبده . وقد تبينت في زيارة لي إلى الجامع الأزهر برفقة صديق الأستاذ حسن عبد الوهاب المفتش بإدارة حفظ الآثار العربية معالم المسجد الفاطمي القديم ، وعانيت بعض النقوش الفاطمية الباقية في جنباته .



محراب الجامع الأزهر القديم وقد ظهرت به نقوش فاطمية
« تصوير لإدارة حفظ الآثار العربية »

الأولى ، ويقع على مقربة من القصر الفاطمي الكبير ، المسمى بالقصر الشرقى ؛ وقد كان يقع يومئذ غرب المكان الذى يقوم عليه المسجد الحسينى الآن . وكانت القصور الفاطمية أو القصور الزاهرة المكونة من القصر الشرقى الكبير وملحقاته ، والقصر الغربى الصغير والميدان الشاسع الواقع بينهما ، والمسعى بميدان بين القصرين تكون مع الجامع الأزهر وما بينهما من الأبنية والساحات المدينة الفاطمية الملوكية . ومن حول هذه المدينة الملوكية تقع خطط القبائل والجماعات الفاطمية المختلفة . وما زالت القاهرة المعزية الأولى تحتفظ بقسط من معالمها القديمة . وفى وسعنا أن نحدد اليوم مما بقى من هذه المعالم ؛ فقد كانت تحد من الشمال بموقع بابى النصر والفتوح وما يليهما ، ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المشرفين على الجبل ، ومن الجهة الغربية بموقع باب السعادة ، وما يليه حتى شاطئ النيل الشرقى ، وقد كان يجرى يومئذ على مقربة من أسوار المدينة الغربية^(١) .

(١) ليست هذه المعالم مجهولة ممن يعرف أحياء القاهرة القديمة فواقع باب زويلة وبابى النصر والفتوح وما حذا القاهرة المعزية من الجنوب والشمال لاتزال قائمة معروفة وكذلك مواقع بابى المحروق والبرقية (خط =

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون الجامع الأزهر بالتجديد والعمارة
في فرص عدة ؛ ففي سنة ٣٧٨ هـ جدد فيه العزيز بالله أشياء ، ثم
جدده ولده الحاكم بأمر الله وزوده بمجموعة من التناوير الفضية ،
ورتب له في سنة ٤٠٠ هـ مع بعض المنشآت الفاطمية الأخرى أوقافاً
ينفق من ريعها على إدارته وشئونه ، فكانت أول وقفية رتبت
للجامع الأزهر . وفام الخليفة المستنصر بالله أيضاً بتجديد الأزهر ؛
وجدده من بعده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مما بلى الباب الغربي
مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء . وفي عهد الملك الظاهر
بيبرس ، قام الأمير عز الدين أيمن الحلبي ، نائب السلطة بعمارته
وتجديده تجديداً شاملاً ، وكان الخراب قد تطرق اليه ، فأنفق على
عمارته وإصلاحه وتجميله أموالاً عظيمة ، وسعى في إعادة خطبة
الجمعة اليه كما سيجيء في موضعه . وفي سنة ٧٠٢ هـ في عهد السلطان
الملك الناصر وقعت بمصر زلزلة عظيمة ، وسقطت منشآت عدة منها

= انداسة الحديثة) تحدد معالم الحد الشرقي للقاهرة المعزية من جهة المقطم وعلى
ذلك يكون موضع المدينة المعزية القديمة مما يشمل الآن الجامع الأزهر وما حوله
من الأحياء والجمالية وقسم من الحسينية وباب الشعيرة والموسكى الى الخليج
القديم والسكة الجديدة والغورية وما حولها وحارة الروم وما يليها ودرب سعادة
وما يليه إلى باب الخلق وامتداد ذلك غرباً حتى النيل (راجع الخطط ج ٢ ص
١٧٩ وما يليها والخطط التوفيقية ج ١ ص ٧)

الجامع الأزهر ؛ فقام أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت ، وتولى
عمارة الجامع الأزهر الأمير سلار ؛ وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس
نقيب الجيوش مدرسته التي عرفت باسمه « الطيبرسية » بجوار
الجامع الأزهر من الجهة الغربية البحرية ، لتكون ملحقة له ، وكل
بناؤها في سنة ٧٠٩ هـ وقرر بها درساً للشافعية . وبعد ذلك بقليل
أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد ، استادار الملك الناصر
مدرسته المقابلة لها في الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر ،
مكان دار الأمير عز الدين أيدمر الحلي ، وأنشأ بها دروساً للشافعية
والحنفية وملجأ للصوفية . وقد حجبت المدرستان الطيبرسية
والأقبغاوية واجهة الجامع الأزهر الغربية ، وما زالتا قائمتين في
مكانهما الى اليوم . وفي سنة ٧٢٥ هـ قام بتجديد الجامع الأزهر
وعمارته القاضي نجم الدين محتسب القاهرة ؛ ثم جددت عمارته سنة
إحدى وستين وسبعماية في عهد السلطان الملك الناصر حسن على
يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار ، وكان يسكن على مقربة من
الأزهر ، فاستأذن السلطان في إصلاحه وقام فيه بعمارة شاملة ،
وأنشأ فيه دروساً جديدة للفقهاء الحنفي ، ورتب لطلابه أطعمة توزع
عليهم كل يوم ، وأوقف على ذلك أوقافاً جلييلة . وفي سنة ٨٨١ هـ
في عهد الملك الأشرف قايتباي أمر السلطان بأزالة الخلوات التي



منارات الغورى وقايتباى والأقبغاوية من الداخل ومنظر البوائك الغربية
« تصوير إدارة حفظ الآثار العربية »

كانت بسطح الأزهر وفقاً لفتوى صدرت بذلك ، ورسم بتجديد الجامع وعمارة ما تشعث منه ؛ وأمر بإنشاء المنارة الواقعة في الجهة البحرية الغربية الى يمين المدرسة الاقبغوية والباب الذي تعلوه ، حسبما نقش على أحجار هذا الباب ؛ وتمتاز هذه المنارة برشاققتها وزخارفها الجميلة . وفي أواخر عهد الأشرف أيضاً ، قام الخوaja مصطفى بن محمود بن رستم الرومي بعمارة الجامع الأزهر وتجديده ، وأنفق عليه من أمواله جملة كبيرة ، وانتهت هذه العمارة في سنة ٩٠٠ هـ . وأنشأ السلطان الغوري بالأزهر منارته الجميلة ذات الرأسين التي مازالت قائمة الى الآن في الجهة الغربية الى جانب منارة الأشرف قايتباي .

وفي أثناء العهد التركي قام عدة من الولاة والأكابر بتجديد الأزهر ، فجدده في سنة ١٠٠٤ هـ الشريف محمد باشا والي مصر ورتب به أطعمة للفقراء . وعمر به الوزير حسن باشا والي مقام الحنفية في سنة ١٠١٤ هـ ؛ ثم جدده الأمير اسماعيل بك بن الأمير إيواظ بك القاسمي في أوائل القرن الثاني عشر . بيد أن أعظم عمارة أجريت بالجامع الأزهر في ذلك العهد هي التي قام بها الأمير عبد الرحمن كتبخدا القازدغلي في أواخر القرن الثاني عشر ، فقد أنشأ هذا الأمير الكبير في الناحية الشرقية القبلية من الجامع بهواً كبيراً

يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة ؛ وأنشأ للجامع محراباً ومنبراً جديدين ، وبني في أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن ، وأنشأ أيضاً بداخله رحبة متسعة وصهرجاً عظيماً ، وأنشأ له داخل هذه الرحبة مدفنًا عليه قبة معقودة ، كما أنشأ بتلك الجهة رواقاً خاصاً لطلاب الصعيد ؛ وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها هي والمدرسة الأقبغاوية داخل الجامع ، وأنشأ فيما بينهما باباً عظيماً بالهيئة التي تراها اليوم ؛ وأنشأ للجامع منارتين جديدتين ، تقع إحداها في الجهة الشرقية القبليّة والأخرى في الجهة الشرقية ؛ وعلى الجملة فقد كانت هذه العمارة أعظم مما شهد الجامع الأزهر منذ قرون ؛ ورتب هذا الأمير الكبير للجامع وطلابه مرتبات وأطعمة كثيرة ، وما زال الجامع الأزهر بوجه عام على حاله التي جدده بها عبد الرحمن كمتخدا ، ما عدا تغييرات وإضافات قليلة أجريت في العهد الأخير^(١) .

وهكذا لبث الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة موضع العناية والرعاية من الخلفاء والسلاطين والأمراء ، يتعهدونه بالتجديد

(١) راجع ترجمة الأمير عبد الرحمن كمتخدا وتفاصيل منشأته الكثيرة بالأزهر وغيره من المساجد والمدارس في عجائب الآثار للجبرتي ج ٢ ص ٥ وما بعدها

والإصلاح والنفقة المستمرة ؛ ولم يحظ جامع آخر من جوامع مصر
التاريخية بمثل ما حظى به الأزهر من رعاية ؛ وقد يرجع أكبر
الفضل في ذلك الى ما يتمتع به الأزهر من الصفات العلمية الى جانب
صفته الدينية ؛ وما زال الجامع الأزهر بفضل هذه الرعاية المستمرة
يحافظ بفخامته ورونقه وجدته بالرغم من عمره الألفى .

الفصل الثاني

المعز لدين الله ووزيره جوهر

المعز لدين الله . طموح الفاطميين الى فتح مصر . جوهر وزير المعز .
افتتاحه لمصر وأمانه لأهلها . مقدم المعز الى مصر وقيام الخلافة
الفاطمية بها . اتسامه بصفة الإمامة . الصراع بينه وبين القرامطة .
وفاته . خلال جوهر ووفاته .

والآن يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن ذينك الرجلين العظيمين
الذين يرتبط اسمهما الى الأبد بإنشاء تلك المؤسسة الدينية والثقافية
الكبرى أعنى المعز لدين الله ووزيره وقائده جوهر الصقلي

كان المعز لدين الله ، وهو أبو تميم معد رابع الخلفاء الفاطميين
بالمغرب وأولهم بمصر ؛ ولد بالمهدية عاصمة الدولة الفاطمية بالمغرب في
منتصف رمضان سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وتولى الخلافة بعد أبيه
المنصور بنصر الله سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) ، وهو فتي في الرابعة
والعشرين من عمره . وكان الخلفاء الفاطميون منذ استقر ملكهم
بالمغرب يتطلعون الى امتلاك مصر جارتهم من الشرق ، لا توسيعاً
للملكهم الفتي فحسب ، ولكن بالأخص لأن مصر كانت تخلصها

وغناها ، ومواردها الزاخرة وموقعها المتوسط في قلب العالم الإسلامي
تصلح أن تكون مثوى مملكة عظيمة لا يتأتى قيامها في هضاب
المغرب المجذبة . ووجه الفاطميون منذ عهد عبيد الله المهدي ، أول
خلفائهم الى مصر عدة حملات قوية لافتتاحها ، ولكنها أخفقت
جميعاً في تحقيق هذه الغاية ؛ فلما تولى المعز كانت مصر قد انتهت
بعد وفاة أميرها كافور الأخشيدى (سنة ٣٥٧ هـ) إلى حال يرثى لها
من الضعف وتفرق الكلمة واضطراب الأمور . ورأى المعز الفرصة
سائحة لتحقيق مشروع آبائه في افتتاح مصر ، وأيقن مما وقف عليه
من رسله ودعائه أنه لن يلقى في افتتاحها كبير مشقة أو معارضة .
وكانت الدولة الفاطمية قد بلغت أوجها من القوة والفتوة . فجهز المعز
لفتح مصر جيشاً عظيماً عهد بقيادته الى وزيره وقائده جوهر الصقلي .
وكان جوهر مملوكاً من أهل صقلية كما يدل عليه لقبه — وكانت
صقلية يومئذ تحت حكم المسلمين — فضمه المعز الى بطانته ، وكناه
بأبي الحسين ، وعنى بتربيته وتثقيفه في شئون البلاط والدولة ؛ وكان
البلاط الفاطمي قد أخذ يغص يومئذ بأولئك المماليك الصقالبة الذين
تبوأوا ذروة النفوذ فيما بعد ولا سيما في عهد العزيز بالله ولد المعز ؛
وكان جوهر عميدهم وأعظم شخصياتهم . وقدر المعز مواهبه وخلالله
فولاه وزارته ثم اختاره لقيادة جيوشه ؛ وبرز جوهر في الحرب

والقيادة كما برز في السياسة والإدارة ، فغزا المغرب الأقصى واخترقه ظافراً حتى ساحل المحيط الأطلنطي . ثم اختاره المعز ليسير الى فتح مصر ، فسار إليها من القيروان في ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ وبلغت الحملة الفاطمية على مصر على قول بعض الروايات مائة ألف فارس غير الجند المشاة^(١) . ولا بن هاني الأندلسي^(٢) قصيدة رائعة يصف فيها خروج الحملة الفاطمية الى مصر وفيها يقول مخاطباً جوهر :

رحلت الى الفسطاط أول رحلة

بأيمن فال في الذي أنت تجمع

فإن يك في مصر ظمأ لمورد

فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ويعينهم من لا يغار بنعممة

فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

ووصل جوهر في جيشه الضخم الى مصر في أوائل شعبان

سنة ٣٥٨ هـ وهزم جند الأخشيدي التي تصدت لمقاومته بعد معارك

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ وابن خلكان ج ١ ص ١٤٨

(٢) هو محمد بن هاني ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ هـ وبرع في الشعر منذ الحداثة ، ولكنه اتهم بالاحاد فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمي في المهدي . ولما سار المعز الى مصر سار ابن هاني للحاق به ولكنه توفي في طريقه سنة ٣٦٢ هـ . ويمتاز شعر ابن هاني بجودته وروعة افتنانه .

يسيره . ودخل مدينة الفسطاط في ركبه المظفر في عصر يوم الثلاثاء
١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يولييه سنة ٩٦٩ م) « وعليه ثوب ديباج
مشقل ، وتحته فرس أشقر »^(١) وشق المدينة ونزل في البسيط الشاسع
الذى يقع في ظاهرها . وهنالك وضع في الحال خطط العاصمة
الجديدة — القاهرة المعزية — ثم عني بإنشاء جامعها الأزهر كما أسلفنا .
وبعث جوهر البشرى الى مولاه المعز بالفتح العظيم فوصلته في
منتصف رمضان ، وأنشد ابن هانئ بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :
يقول بنو العباس قد فتحت مصر

فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر

تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

وتولى جوهر زمام الأمور في مصر . وفي الأمان الذى أصدره
لأهل مصر تحقيقاً لرغبة زعمائها ما يدل على حزمه وبعد نظره ؛ وفيه
يطمئن جوهر أهل مصر ويؤكد لهم أن الخلافة الفاطمية لا تقصد
بغزو مصر سوى حمايتها والذود عنها ، « بعد أن تخططها الأيدي ،
واستطال عليها المستذل » وينوه بما آلت إليه شئونها من الاضطراب
والفوضى وما يعانى به الشعب من مظالم ومتاعب وما يزمعه أمير

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

المؤمنين من إقامة العدل وتأيد الشريعة وإصلاح المرافق والشئون . وأمر جوهر في الحال بقطع الدعوة العباسية من منابر مصر والشام ، وحرّم لبس السواد شعار بني العباس ، وأقيمت الدعوة الفاطمية في مصر من ذلك التاريخ بعد أن لبثت تنضوي تحت لواء الدعوة العباسية زهاء قرنين وربع . وأمر جوهر أيضاً بتغيير الأذان ، وأن يؤذن « بحى على خير العمل » ، واستمر زهاء أربعة أعوام يدير شئون القطر الجديد بحزم وبراعة . ولما توطدت الأمور ، وتم بناء العاصمة الجديدة في منتصف سنة ٣٦٠ هـ وإعدادها لنزول الخليفة ، قدم المعز لدين الله الى مصر بأهله وبطانته وجيوشه وأمواله ، ودخلها في السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٥ يونيه سنة ٩٧٣) ونزل بالقاهرة في القصر الكبير الذى أعد لنزوله ^(١) ، وتولى شئون مملكته الجديدة بنفسه ، واستبقى جوهرأ في قيادة الجيش ^(٢) . ومن ذلك الحين تغدو القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية بدلا من رقادة والمهدية ، وتغدو مصر منزل الخلافة الفاطمية بدلا من المغرب ، وتغدو ملاذ الدعوة الشيعية ومعتقلها

(١) كان القصر الشرقى الكبير هو الذى تم بناؤه فقط لنزول الخليفة عند إنشاء القاهرة على يد جوهر . ولم ينشأ القصر الغربى الصغير المواجه له إلا بعد ذلك في عهد العزيز بالله

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٧ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣

الحصين حتى انقراض الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .
وكان جامع القاهرة (الجامع الأزهر) قد تم بناؤه ، وافتتح
للصلاة في يوم الجمعة سابع رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) كما تقدم ؛
وفي ذلك اليوم أقيمت به صلاة الجمعة الرسمية لأول مرة . وكانت
تقام قبل ذلك تارة بالمسجد الجامع (جامع عمرو) ، وتارة بالجامع
الطولوني . ومن ذلك اليوم يتخذ الجامع الجديد صفته المذهبية
الرسمية كمنبر للدعوة الشيعية التي ينضوى الفاطميون تحت لوائها .
وقدم المعز لدين الله الى مصر يتسم بصفة الإمامة أكثر مما
يتصف بسمة الملك ، ويبدو في مواكبه وشعائره الدينية حريصاً
على مظاهر الإمامة ورسومها . وقد سجل لنا الفقيه المؤرخ الحسن
ابن زولاق المصري صديق المعز ومؤرخ سيرته ، كثيراً من هذه
المظاهر التي يتشعق فيها المعز بثوب الإمامة ويبدو إماماً دينياً أكثر
منه مَلِكاً سياسياً ، في صلاته وفي خشوعه ، وفي ركوعه
وسجوده ، وفي خطبه ومواعظه ^(١)

بل نجد المعز في رسالته الشهيرة التي وجهها الى الحسن الأعظم
زعيم القرامطة ، يتسم بسمة النبوة ، ويسبغ على الإمامة الفاطمية
لونها من القدسية ، وينوه بخواصها ودلالاتها المقدسة ، ومقدرتها

(١) راجع المقرئ عن ابن زولاق ، في انعاظ الحنفاء ص ٩٠ و ٩٢ و ٩٤

الروحية الخارقة ، وكونها إمامة الدنيا والدين معاً^(١) .

ومنذ عهد المعز يحتفل الخلفاء الفاطميون بإقامة الصلوات في أيام الجمعة أو الأعياد في مختلف المواسم والمناسبات في جامع القاهرة أو الجامع الأزهر ؛ وكثيراً ما كان الخليفة يؤم الناس ويخطب فيهم بنفسه ؛ وكان المعز قدوتهم في ذلك ، وكان خطيباً فصيحاً مؤثراً ، وكثيراً ما كان يُبكي الناس بذلاقتة وروعة وعظه^(٢) . ومن ذلك الحين يغدو الأزهر مسجد الخلافة الرسمي تقام فيه الصلوات الجامعة يوم الجمعة وفي المواسم والمناسبات الدينية الهامة ، وتقام فيه أيضاً الى جانب الصلوات الرسمية طائفة من الحفلات الدينية والاجتماعية الباهرة . وسنعنى في فصل قادم بوصف هذه الأيام والمناسبات الفاطمية الشهيرة .

ولم يطل عهد المعز لدين الله بمصر أكثر من عامين ونصف . وكان خطر القرامطة يهدد ملكه الجديد بين آونة وأخرى ؛ وكان القرامطة وهم فرقة من غلاة الشيعة ، قبل ذلك من أولياء الخلافة الفاطمية المنضوين تحت لوائها ، ولكنهم انقلبوا الى خصومتها حينما استولى الفاطميون على مصر ، وشعروا أن تقدم الغزاة نحو

(١) أورد المقرئ نص هذه الرسالة الشهيرة في انعاظ الخلفاء

ص ١٣٣ — ١٤٣ . (٢) انعاظ الخلفاء ص ٦٢ .

المشرق سيقضى على أطماعهم في الشام ؛ وكانت الشام أول مسرح
للنضال بين الفريقين وفيها اضطربت بينهما معارك عديدة رجحت
فيها كفة القرامطة ؛ وأذكى هذا الظفر عزم القرامطة فعولوا على
غزو مصر وزحفوا عليها بالفعل مرتين : الأولى في أوائل سنة
٣٦١ هـ والثانية في أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، واقتربوا في المرة الأولى
من القاهرة عاصمة الخلافة الجديدة ، وبذلت الجيوش الفاطمية
بقيادة جوهر لردهم جهوداً جبارة ، فارتدوا منهزمين الى الشام . ومما
ينسب الى زعيمهم الحسن الأعصم في الإشارة الى غزو مصر قوله :

زعمت رجال الغرب أنى هبتها

فدمى إذن ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم

يروى ثراك فلا سقانى النيل

وتوفى المعز لدين الله في ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ
(ديسمبر سنة ٩٧٥ م)^(١) وخطر القرامطة لا يزال يهدد مصر
والشام . خلفه ابنه العزيز بالله ، أبو منصور نزار . واستمر جوهر
في عهد العزيز على مكانته في الدولة ، رجليها الأول وقائد جيوشها

(١) راجع في ترجمة المعز لدين الله ، ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٣
وما بعدها واتعاظ الحنفاء للمقريزى ، وخطط المقريزى ج ٢ ص ١٦٤ —
١٦٧ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٩ وما بعدها .

العام ؛ وخاض مع الفرامطة في الشام معارك أخرى ، وغمره العزيز بعطفه وثقته ، وتوفي في ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ (فبراير سنة ٩٩٢ م) وقد جاوز الثمانين ^(١) واحتفل بدفنه في تكريم بالغ وصلى عليه العزيز بنفسه ، ورثاه شعراء العصر بقصائد رنانة ؛ وخلع العزيز على ولده الحسين ، وعينه مكان أبيه في القيادة ، ولقبه بالقائد ابن القائد ، واستمر على مكانته ونفوذه أيام العزيز .
وكان جوهر من أعلام الدولة الفاطمية وأقطاب مؤسسيها ، وكان يتمتع بخلال باهرة من الذكاء والشجاعة والعزم وبعد النظر وإيثار العدل وحب الخير ^(٢) .

(١) راجع في ترجمة جوهر ، ابن خلسكان ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها
وخطط المقرئ ج ٤ ص ٢٠٥ وما بعدها ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها .
(٢) ابن خلسكان ج ١ ص ١٤٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣ .

الفصل الثالث

البداية الجامعية

أول درس عقد بالأزهر . بنو النعمان قضاة الدولة الفاطمية .
جلوس الوزير ابن كلس بالأزهر . تنظيمه للحلقات الدراسية
الأولى . الحدث الجامعي . حياة ابن كلس وخلالها

— ١ —

منذ نحو ألف عام يتمتع الأزهر بصفته الجامعية ؛ وقد عرفته
الأجيال المتعاقبة دائماً معهداً للقراءة والدرس كما عرفته دائماً
مسجداً جامعاً . ولكن توجد ثمة فكرة ذائعة يجب محوها وثمة
حقيقة تاريخية يجب تقريرها . ذلك أن الجامع الأزهر لم يُنشأ في
الأصل ليكون جامعة أو معهداً للدرس ، وليس ثمة في ظروف
إنشائه ثم في ظروف حياته الأولى ما يدل على أنه أنشئ لمثل هذه
الغاية . وإنما أنشئ الجامع الأزهر ليكون مسجداً رسمياً للدولة
الفاطمية في حاضرتها الجديدة ، ومنبراً لدعوتها الدينية ، ورمزاً
لسيادتها الروحية . وقد رأينا فيما تقدم طرفاً من البواعث والظروف
التي كانت تحيط بقيام المساجد الجامعة في العواصم الإسلامية
الأولى ، والمغزى السياسي والديني الذي كان يعلق على إنشائها ،

ورأينا كيف اقترن إنشاء الجامع الأزهر مسجد القاهرة الجامع
بنفس البوعث والظروف .

أما فكرة الدراسة بالأزهر ، فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب
على فكرة الدعوة المذهبية ، وغلب الحدث العارض شيئاً فشيئاً
على صفته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعي الخالد .

ففي صفر سنة ٣٦٥ هـ (اكتوبر ٩٧٥ م) في أواخر عهد
المعز لدين الله جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان
القيروانى ^(١) بالجامع الأزهر ، وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت
(فقه الشيعة) وهو المسمى بكتاب الاختصار في جمع حافل من
العلماء والكبراء ، وأثبتت أسماء الحاضرين ، فكانت هذه أول
حلقة للدرس بالجامع الأزهر ^(٢) . ثم توالى حلقات بنى النعمان
بالأزهر بعد ذلك . وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين
اصطفاهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعائمها وأسنمتها الروحية ،

(١) هو أبو الحسن على بن محمد النعمان القيروانى ، تولى قضاء مصر في
أواخر عهد المعز لدين الله ، وكان أول من لقب بقاضى القضاة في مصر ،
وأقام في منصبه حتى توفى سنة ٣٧٤ هـ في عهد العزيز بالله ، وكان بارعاً في
النظم ، وكان من علاة الشيعة وأقطاب دعايتها . وأما أبوه فهو أبو حنيفة
النعمان بن محمد بن منصور القيروانى المعروف بابن حيون ، وكان من أكابر
علماء الشيعة . تولى القضاء للمعز بالمغرب ، وقدم معه الى مصر ولكنه لم
يتول قضاءها . (٢) الخطط ج ٤ ص ١٥٦ .

فلحقوا بها الى مصر ، واستأثروا في ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن . وكانت الخلافة الفاطمية تعتمد في توطيد سلطانها بمصر على عصبيتها المغربية ثم على صحتها وخاصتها من الموالى الأجانب وجلهم من الصقالبة . وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر ، والقصر حلقات دعاية دينية وسياسية تعقد في الغالب للأكابر والخاصة ، ولم تكن لها في البداية صفة الدروس العامة .

وكانت هذه أول حلقة للقراءة والدرس بالجامع الأزهر ، ولم يكن مضى على إنشائه سوى ثلاثة أعوام ونصف ، وكانت هذه بداية ضئيلة لحركة دراسية متواضعة . بيد أنها كانت بداية جامعية في معنى من المعاني . وفي أوائل عهد العزيز بالله حدث بالجامع الأزهر حادث جامعي آخر . ففي رمضان سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلثوم وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر ، وقرأ على الناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية متضمناً ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز ، وهو المعروف « بالرسالة الوزيرية » نسبة الى مؤلفها الوزير . وكان يجلس لقراءته بنفسه في الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع الى سماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر والدولة ؛ وأفتى

الناس يومئذ بما فيه^(١). وكان ابن كلّس كما سنرى شخصية ممتازة تجمع بين السياسة والعلم ، وكان نصيراً كبيراً للعلماء والأدباء ، وكان يعقد مجالسه الفقهية والأدبية تارة بالجامع الأزهر ، وتارة بداره الخاصة ، فيهرع إليها العلماء والطلاب من كل صوب . وكانت مجالس ابن كلّس في الواقع أول مجالس جامعية حقة عقدت بالجامع الأزهر ، وكانت تمتاز عن مجالس بني النعمان بتحررها من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية .

والظاهر أن الوزير ابن كلّس هو أول من فكر في اتخاذ الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة . وعلى أى فهو أول من فكر في تنفيذ هذا المشروع الجامعي العظيم . ففي سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) استأذن ابن كلّس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ، ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ؛ وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً ورئيسهم ، ومنظم حلقتهم الفقيه أبو يعقوب قاضي الخندق ؛ وكان جل

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ والخطط ج ٤ ص ١٥٧ . وراجع أيضاً الإشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٣ .

حديثهم في الفقه وما إليه . ورتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية حسنة ، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم في يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات تشریفاً لهم وتكريماً ، وأجرى عليهم ابن كلّس أيضاً أرزاقاً من ماله الخاص ^(١) .

وهنا نجد أنفسنا أمام حدث جامعي حقيقي . فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلّس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله أول الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر ، وأجرت عليهم الدولة أرزاقاً ثابتة وباشروا مهمتهم العلمية تحت إشراف الدولة بطريقة منظمة مستقرة ؛ وإذن فنحن نستطيع هنا أن نقول إن الأزهر يكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة ، وأنه يبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة .

وإذا ما تقررت هذه الحقيقة التاريخية ، فإننا نستطيع أيضاً أن نقول إن أكبر الفضل في تتويج الجامع الأزهر بهذه الصفة الجامعية الخالدة يعود إلى الوزير ابن كلّس الذي أسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية ، ورتب له أول فريق من الأساتذة

(١) صبح الأعشى (عن المسبحي) ج ٣ ص ٣٦٧ والخط ج ٤

الرسميين ، ويعود الى الخليفة العزيز بالله الذى قدر مشروع وزيره
النابه ، وعاونه فى تحقيقه وتنفيذه .

ولقد كان ابن كلّس وزيراً عظيماً وعالمًا جليلاً ، بل كان
عبقريّة سياسية حقّة . وهو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس
واسمه يدل على أصله الذمى . ذلك أن ابن كلّس كان يهودياً نشأ
ببغداد وغادرها فى شبابه الى الشام . واشتغل هنالك حيناً بالتجارة ،
وأثقلته ديون عجز عن أدائها ، ففر الى مصر فى عهد كافور
الإخشيدي ، واتصل به وقام له ببعض الأعمال والمهام المالية فأبدى
فى أدائها خبرة وبراعة . وطاف بريف مصر يحصل الأموال ويعقد
الصفقات حتى تمكنت منزلة لدى كافور وأثرى وكثرت أمواله
وأملأه . ثم ثابت له فكرة فى الأخذ بنصيب من السلطة والولاية ،
ورأى الاسلام خير طريق لتحقيق هذه الغاية . وكان قد بلغه أن
كافوراً قال فى حقه « لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون
وزيراً » . فدرس قواعد الاسلام وشرائعه سرا . وفى شعبان
سنة ٣٥٦ هـ دخل جامع مصر (جامع عمرو) وصلى به الصبح فى
موكب حافل . ثم ركب فى موكبه الى كافور فخلع عليه ، واشتهر
أمره وعلت منزلته وقوى نفوذه . فتوجس وزير مصر جعفر بن
الفرات من تقدمه وتمكن نفوذه شراً ، وأخذ يدس له الدسائس

ويوغر عليه الصدور . نخشى ابن كلّس العاقبة وفر الى المغرب في شوال سنة ٣٥٧ هـ ولحق بالمعز لدين الله الخليفة الفاطمي وهو يومئذ ينظم مشروعه لغزو مصر . فقدّر المعز مواهبه وخلالله ، ووقف منه على أحوال مصر ومواطن القوة والضعف فيها . ولبث ابن كلّس في خدمته حتى تم فتح مصر على يد جوهر الصّقلي . ولما قدم المعز الى مصر بأهله وأمواله وجيوشه في رمضان سنة ٣٦٢ هـ قدم معه ابن كلّس وقلده المعز شؤون الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشؤون المالية الأخرى ، فأبدى في إدارتها وتنظيمها براعة ، وزاد الدخل زيادة واضحة . ثم عهد اليه المعز بشئونه الخاصة . ولما توفي المعز بعد ذلك بقليل في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ فوض ولده العزيز بالله الى ابن كلّس النظر في سائر أموره ثم لقبه بالوزير الأجل . ووقعت في حقه وشايات من بعض خصومه فاعتقله العزيز بالقصر بضعة أشهر . ثم أطلقه وردّه الى مناصبه ، وتضاعفت منزلته لدى العزيز ، وغدا أقوى رجل في الدولة . وبذل ابن كلّس جهوداً عظيمة في تنظيم الإدارة والدواوين ، وكان من أكبر بناء الدولة الفاطمية بمصر وموطدى دعائمها ونفوذها .

وليس غريباً أن يحرز رجل مثل ابن كلّس تلك المسكنة الرفيعة في ظل الدولة الفاطمية مع أنه يهودى الأصل والنشأة ؛

فقد كانت الخلافة الفاطمية تصطنع الذميين والصقالبة وتوليهم ثقتها . وقد ولى وزارتها فيما بعد فى عصر الحاكم بأمر الله وزراء يهود ونصارى خلص ، مثل الرئيس ابن فهد وعيسى بن نسطورس وابن عبدون ، وتولى وزارة الدولة بعدهم كثيرون منهم فى مختلف العهود .

ولم يكن ابن كلّس وزيراً وسياسياً عظيماً فقط ، بل كان عالماً وأديباً كبيراً أيضاً ، وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء . وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ويشترك فى أعمالها ويغدق العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلّس بقسط حسن فى التأليف والكتابة ، فوضع كتاباً فى القراءات ، وكتاباً فى الفقه ، وكتاباً فى آداب رسول الله ، وكتاباً فى علم الأبدان والصحة ، ومختصراً فى فقه الشيعة ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية التى أشرنا إليها فيما تقدم . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلحهم . وكانت موائده دائماً منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلات والإحسان ؛ وبالجملّة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب عالماً بين رجالات عصره ؛ وقد أشاد شعراء العصر بخلاله وجوده وعبقريته ،

ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة في يده :
يد الوزير هي الدنيا فان ألت رأيت في كل شيء ذلك الأما
تأمل الملك وانظر فرط علمته من أجله واسأل القرطاس والقلم
هل ينهض المجد إلا أن يؤيده ساق يقدم في إنهاضه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير معاً تحيقتنا خطوب تشعب الأما
ومرض ابن كلّس في شوال سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، فخرج
عليه العزيز أيما جزع ، ولبت يعوده ويرعاه حتى توفي في الخامس
من ذي الحجة ؛ فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتجهيزه تجهيز
الأمراء والملوك ، وخرج من القصر الى داره في موكب صامت
مؤثر ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى ووري في
التراب وهو يبكي بدمع غزير ، واحتجب في داره ثلاثاً لا يأكل
على مائدته ، والحزن يشمل الخاص والقصر كله : وأفاض الشعراء
في رثاء الوزير الراحل ومدىحه فوصلهم العزيز جميعاً . وعلى الجملة فقد
سما ابن كلّس في ظل الدولة الفاطمية الى أرفع مكانة ، وترك بوفاته
فيها أعظم فراغ ، وكان له أعظم الأثر في توطيد حكمها وإدارتها
بمصر (١) .

(١) راجع في حياة ابن كلّس ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ والخطاط ج ٣
ص ١٠-٧ والاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ .

الفصل الرابع

الأزهر ودار الحكمة

دار الحكمة أو دار العلم . بواعث انشائها . نظمها الدراسية .
علاقتها بالدعوة المذهبية . التنافس بينها وبين الأزهر . اضطراب
الحياة العقلية في مصر الاسلامية

— ١ —

هكذا كانت حياة ذلك الوزير الخطير الذى يدين له الجامع
الأزهر بأول خطوة عملية حقيقة فى سبيل الحياة الجامعية ، والذى
يجدر به أن يتبوأ فى تاريخ الأزهر مقاماً يخلق بفضلها فى وضع هذا
الغرس الجامعى الذى أነع فيما بعد وازدهر . ومن الحق أن هذه
الخطوة الأولى فى ترتيب الأساتذة وتنظيم الدراسة بالأزهر كان لها
أثر كبير فى تطور الغاية الأولى التى أنشئ من أجلها المسجد الجامع
بالقاهرة المعزية ، فقد كان هذا الإنشاء يرجع كما قدمنا الى بواعث
تقليدية ومذهبية ، وقد أريد بالأزهر أن يكون قبل كل شيء
رمزاً للخلافة الجديدة ومنبراً لدعوتها ، ولم ينشأ فى الأصل لغاية
علمية أو دراسية .

على أن هذه البداية الدراسية المتواضعة التي ظفر بها الأزهر في أواخر عهد المعز ثم نمت وانتظمت في عهد العزيز على يد الوزير ابن كلّس لم تكن حدثاً جديداً أو بدعة في تقاليد المساجد الجامعة . فقد رأيت أن جامع مصر (جامع عمرو) كان منذ القرن الأول للهجرة يقوم بهذه المهمة العلمية الى جانب مهمته الدينية ، وكانت حلقاته مجمع الفقهاء والأدباء ، وكان حين قيام الجامع الأزهر أهم معهد للدراسة الممتازة في مصر ، بل سنرى أنه لبث عصوراً يقوم الى جانب الأزهر بدوره العلمى القديم .

وهكذا فإن الإتجاه الدراسى الذى دفع الأزهر إلى طريقه كان وليد المصادفة والظروف ، وكان وليد رغبة عارضة خطرت لوزير عالم وأمير مستنير . بيد أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية لم تقصد في البداية أن توجه الأزهر الى تلك الغاية الجامعية المحضة ، فقد كان في برنامجها مع ذلك أن تحقق هذه الغاية على يد معهد دراسى خاص ، وأن تقيم في العاصمة الجديدة جامعة للدرس ونشر المذهب الفاطمى . ولكنها لم تر أن تتخذ من الأزهر وهو مسجد الدولة الرسمى مقراً لهذه الجامعة ، بل أريد أن تكون الجامعة الجديدة معهداً مستقلاً بذاته . وعلى ذلك أنشئت دار الحكمة الفاطمية أو دار العلم الشهيرة ، أنشأها الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله

في العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٩٧٥ م) أعني لنحو خمسة وثلاثين عاماً من قيام الجامع الأزهر . وكانت تعقد قبل ذلك بالقصر وأحياناً بالأزهر ، مجالس تسمى مجالس الحكمة ، ينظمها قاضى القضاة وتقرأ فيها علوم آل البيت ، ويهرع الناس الى شهودها ، وتخصص فيها مجالس للخاصة ومجالس للكافة وأخرى للنساء . ولكن الحاكم بأمر الله رأى أن تكون هذه المجالس أوسع مدى وأن تنظم في سلك حلقات دينية وعلمية متصلة يجمعها معهد رسمى واحد ، فأنشئ المعهد الجديد وأطلق عليه دار الحكمة أو دار العلم .

ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو بالحرى هذه الجامعة الغربية . ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة تضم عدة حلقات وكليات دينية وعلمية وأدبية . وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الصغير بجوار باب التبانين تعرف بدار مختار الصقلى ، وقسمت الى عدة أقسام أو مجالس لعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرها ، وعين لها أقطاب الأساتذة في كل علم وفن . وعنى بتأنيثها وزخرفتها عناية فائقة ، وحملت إليها من خزائن القصر مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والفنون ،

لتكون رهن البحث والمراجعة ، ورصدت للانفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها وخدمها أموال ضخمة . وخصمها الحاكم بجزء من ريع أملاكه التي وقفها على بعض مساجد القاهرة ومعاهدها ، وخص فيها الجامع الأزهر أيضا بجزء من هذا الريع ^(١) . وكان التعليم فيها حرا على نفقة الدولة ، ويتمنح الطلاب والباحثون جميع الأدوات الكتابية ، ولهم أن يقرأوا وينسخوا ما شاءوا من الكتب ، وأن يستمعوا الى ما شاءوا من الدروس والمحاضرات . وهرع الطلاب الى دار الحكمة من كل صوب ، وأفردت للنساء فيها مجالس خاصة . ويصف لنا المسبجي وهو مؤرخ معاصر وشاهد عيان ما اتخذ لإنشاء دار الحكمة من عظيم الأبهة والعناية ، وما اجتمع في مكتبتها العظيمة من نفائس المراجع والكتب « مما لم يجتمع مثله لأحد قط من الملوك » .

واتخذت دار الحكمة في البداية طابعا حرا ، فدعى إليها الأساتذة من المذهبين ، السنة والشيعة ، وقرئت بها فضائل الصحابة ، ولكن أبعد عنها الأساتذة السنيون فيما بعد ، وقتل بعضهم وتأكدت بذلك صفتها المذهبية . وكان الإشراف على مجالس الحكمة من شئون قاضى القضاة ، ولكنها لما انتظمت

(١) ستعرض الى هذه الوثيقة فيما بعد .

وأتسع نطاقها بقيام دار الحكمة عهد بها الى زعيم ديني حاص يلى
قاضى القضاة فى الرتبة ويسمى داعى الدعاة^(١) ، وأنشئ لها بين
وظائف الدولة ديوان خاص .

كانت دار الحكمة فى ظاهرها جامعة حرة علنية يلتحق بها
من يشاء ويدرس ما شاء من مختلف العلوم والفنون . ولكن
هذا المظهر العلمى لم يكن فى الواقع الا ستارا للغاية الأصلية التى
أنشئت دار الحكمة لتحقيقها ، وهى بث الدعوة الفاطمية بطريقة
علمية منظمة تتمزج فيها النظريات والآراء الفلسفية ، بالأصول
والمبادئ المذهبية ، وتكون أبعد أثرا فى غزو الأذهان والعقائد
من مجالس القصر ، وبذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيسى يُحشد
فيه المؤمنون من كل صوب ليقوموا فيما بعد بقسطهم فى حمل
الدعوة وبثها فى سائر المجتمعات والأنحاء^(٢) .

(١) كان منصب داعى الدعاة أو رئيس الدعاة من المناصب الدينية الكبيرة
فى الدولة الفاطمية ، وكان يختار من أكابر العلماء المتفوقين فى علوم آل البيت
وله نقباء ونواب فى سائر النواحي . (راجع الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ وصباح
الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧) .

(٢) راجع فى تاريخ دار الحكمة ونظمها ومجالسها ، الخطط ج ٢ ص
٢٢٦ و ٢٢٧ و ٣٣٤ و ٣٣٧ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٣ ، وصباح
الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٨ ، وراجع كتابى
« الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » ص ١٦٤ و ١٦٥ .

واستطاعت دار الحكمة في ظل الرعاية الرسمية أن تنمو بسرعة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ازدهرت وسار ذكرها في الآفاق ، وهرع إليها الطلاب من سائر الأقطار ، وتبوأ مركز الزعامة في الدراسات العلمية والفقهية الممتازة في هذا العصر .

واجتذبت الجامعة الجديدة بشهرتها وأساليبها العلمية الخاصة كثيرا من أعلام المشرق . وكان الشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو في مقدمة الوافدين على مصر في هذا العصر ؛ وفد عليها سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٨ م) في أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله ، وانتظم حينما بين تلاميذ دار الحكمة يتلقى منهاجها السرية على يد داعي الدعاة نفسه ؛ وأثرت هذه الدراسة التي يشيد بها في ديوانه في نفسه أعظم تأثير ، حتى أنه تحول من تعاليم السنة الى التعاليم الفاطمية ، وعاد يبشر بها في بلاده ؛ ولم يشد ناصري خسرو بذكر الأزهر كما أشاد بذكر دار الحكمة وداعي الدعاة وجامع عمرو . وكان من تلاميذ دار الحكمة أيضا مواطنه الفيلسوف الحسن بن الصباح مؤسس طائفة الاسماعيلية الباطنية الشهيرة ؛ وفد على مصر في أواخر عهد المستنصر بالله وتفقه في الدعوة السرية على أساتذة دار الحكمة التي لبثت بالرغم من تضاول نفوذها القديم يومئذ أخصب مورد لهذه الدعوة المذهبية المدهشة .

وليس من موضوعنا أن نتتبع ذلك الجانب الخفى من نشاط دار الحكمة الفاطمية وهو جانب كان له أكبر الأثر فى بث الدعوة السرية الفاطمية ، وإنما نتتبع نشاطها من ناحية علاقته بسير الحركة العلمية فى مصر فى القرن الخامس الهجرى وصلته بالدور الذى كان يؤديه الجامع الأزهر فى هذه الحركة . ذلك أنه كان لقيام الجامعة الجديدة أثر كبير فى سير الدراسة بالجامع الأزهر ، وكانت منافسا شديدا للوطاة لمعهد لم تستقر نظمه ولم تتوطد بعد . ومن ثم فقد ركزت حلقات الأزهر يومئذ ، وانفض عنه كثير من الطلاب والأساتذة الى الجامعة الجديدة ، وكانت تجذب الأنظار بمجدتها وروعيتها وتصنيف علومها . بيد أنه يالوح لنا من جهة أخرى أن الأزهر لبث فى هذه الفترة ملاذا للعلوم الدينية . والواقع أن قيام دار الحكمة لم يكن ناسخا للدور الذى أخذ الأزهر فى الاضطلاع به كمعهد للقراءة والدرس ، وإنما كان متمما لهذا الدور فى معنى من المعانى . ذلك أنه بينما استمر الأزهر مركزا للثقافة الدينية المحضة إذا بدار الحكمة تعنى الى جانب مهمتها فى نشر علوم آل البيت بتدريس علوم اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة وما إليها^(١) ؛

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ وراجع كتاب ولاية مصر وقضايتها للسكندى

(الذيل) طبعة رفن جست ص ٦١٠

وبينما لبث الأزهر محتفظاً بطابعه الدينى الخالص إذا بدار الحكمة تغلب عليها الصبغة المدنية والفلسفية . وثمة فارق آخر بين المعهدين المتنافسين هو أنه بينما كانت العلوم الدينية تدرس بالأزهر فى نوع من الحرية دون التقيد المطلق بالقيود المذهبية إذا بدار الحكمة تقتصر مدى حين فى التعليم الدينى على علوم الشيعة وعقائدها ، وتتقيد بجميع قيودها المذهبية .

كذلك يجب ألا ننسى أن جامع مصر أو جامع عمرو كان فى الوقت نفسه لا يزال يحتفظ الى جانب الأزهر ودار الحكمة بقسط من نشاطه القديم فى توجيه الحركة الفكرية ، وكانت حلقاته العلمية والأدبية تعقد بانتظام ، ويشهدها كثير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء^(١) .

— ٢ —

كانت هذه المعاهد الثلاثة جامع القاهرة أو الجامع الأزهر ودار الحكمة أو دار العلم وجامع مصر أو جامع عمرو هى معاهد الدراسات العالية فى مصر الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى . وكانت دولة التفكير والأدب فى بغداد قد أخذت فى الضعف والاضمحلال وأخذت مصر تتأهب بدورها لرعاية التفكير الإسلامى

(١) الخطط ج ٢ ص ١٤٨ .

في المشرق ، وأخذت قاهرتهما تجذب أنظار العلماء في المشرق والمغرب ، ولكن كان عليها أن تقطع عصراً آخر قبل أن تصل الى تحقيق هذه الأمنية السامية . ذلك أن الأزهر لم يكن قد تبوأ بعد مركز الزعامة العلمية التي جعلته فيما بعد كعبة العلماء والطلاب من جميع الأقطار الإسلامية . ونلاحظ أن العلماء والرحل الذين وفدوا على مصر في تلك الفترة مثل ناصري خسرو الذي شهدها سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٨ م)^(١) وعبد العزيز بن أبي الصلت العلامة الأندلسي الذي شهدها في أوائل القرن السادس الهجري^(٢) لم يشيدوا بذكر الأزهر ومكانته العلمية كما أشاد بها بعد ذلك بنحو قرن علماء مثل عبد اللطيف البغدادي^(٣) . بيد أن الأزهر كان يومئذ موئل الثقافة الدينية في مصر ، وكان عنصراً هاماً من عناصر الحركة الفكرية ، وكان يأخذ بقسط بارز في تخريج العلماء والأساتذة ، ولا سيما المحدثين والفقهاء ، وكانت تعقد فيه الى جانب الحلقات الدراسية مجالس الحكمة للنساء في أحيان كثيرة^(٤) ،

(١) راجع الترجمة الفرنسية لرحلة ناصري خسرو Relation du voyage de Nasiri Khosru ص ٤٦ — ٥٤ حيث يصف القاهرة عصره .
(٢) وفد ابن أبي الصلت على مصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي في خلافة الأمر بأحكام الله وتوفي سنة ٥٢٨ هـ .
(٣) وفد عبد اللطيف البغدادي على مصر في أواخر القرن السادس الهجري .
(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

وكانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة ، ففيه كان جلوس قاضي
القضاة في أيام معينة^(١) ، وفيه كان مركز المحتسب العام^(٢) ، وفيه
كان يعقد كثير من المجالس الخلافية والقضائية كما نفصل بعد .
ولبثت دار الحكمة مدى قرن تنافس الأزهر في مهمته العلمية
وتتبعوا مكان السبق والزعامة في كثير من الأحيان . بيد أن عصر
ازدهارها لم يطل ، فقد اضطربت شئون هذه الجامعة المذهبية ،
وفتر نشاطها منذ منتصف القرن الخامس الهجري وفقدت كثيراً من
أهميتها أيام الخليفة المستنصر بالله حينما اضطربت شئون الخلافة
الفاطمية وسرت الفوضى الى كل شئون الدولة ومرافقها ، وما زال
أمرها في انحلال حتى انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه
بأبطالها واغلاقها في أوائل القرن السادس الهجري أيام الخليفة
الأمير بأحكام الله (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) لما ذاع من تدخلها في
العقائد ، ثم أعادها المأمون البطائحي وزير الأمر بأحكام الله
سنة ٥١٧ هـ على نمط جديد روعى فيه تخفيف صبغتها المذهبية ،
وعنى فيها عندئذ بتدريس القرآن وعلومه عناية خاصة ، واستمرت
زهراء نصف قرن آخر حتى نهاية الدولة الفاطمية^(٣) . بيد أنها
كانت في تلك الفترة معهداً عادياً لا يتمتع بكثير من أهميته القديمة .

(١) كتاب الولاية والقضاة للسكندى ص ٦٠٠ و ٦١١ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٤٢ . (٣) الخطط ج ٢ ص ٣١٣ و ٣٣٧ .

ولقد أصيبت الحياة العقلية في مصر الإسلامية بكثير من الاضطراب والضعف في أواسط القرن الخامس الهجري ، أعنى منذ اضطربت شئون الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر بالله ، ونكبت مصر بالشدة العظمى ، وعانت عسف القحط والوباء أعواماً طويلة (٤٤٦ — ٤٦٤ هـ) وشغل المجتمع المصري حيناً بما توالى عليه من الأرزاء والحن ، وشغل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان وتدير الانقلابات السياسية العنيفة عن تعهد الحركة الفكرية ، وعجزت الدولة عن الإنفاق على معاهد التعليم لنضوب مواردها ، وبددت خزائن الكتب أثناء الفتنة وكانت من أنفس وأعظم ما عرف العالم الإسلامي^(١) . وكان لهذا الاضطراب أثره في الأزهر ودار الحكمة فركدت حركة الدرس والتحصيل تبعاً لركود الحياة العامة واضطراب الحياة الخاصة . وفي أواخر القرن الخامس في عصر أمير الجيوش بدر الجمالي المتغلب على الدولة (٤٦٥ — ٤٨٧ هـ) وولده الأفضل شاهنشاه (٤٨٧ — ٥١٥ هـ) عاد النظام والأمن والرخاء إلى البلاد وانتظمت الحياة العامة ، واستعادت الحياة الفكرية نشاطها بما أسبغ عليها من الرعاية ، وما بذل للانفاق على معاهد الدرس من الأموال والأرزاق .

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٥٤ .

الفصل الخامس

نظم الدراسة والحلقات الجامعية

الحلقات الدراسية بمصر الإسلامية . حلقات الفسطاط والمسجد الجامع .
مجالس الشعر والأدب . نظام الدراسة بالأزهر . مصادر الإنفاق
عليه . الأجاس والأعطية الخاصة . الأزهر جامعة حرة

لبثت دار الحكمة كما رأينا عصرًا تأخذ في توجيه الحركة
الفكرية بقسط وافر . وكان الجامع الأزهر أثناء ذلك يقوم بمهمته
العلمية في ذلك المدى المحدود الذي أتيح له أن يعمل فيه حسب ما بينا .
بيد أنه كان يعمل في جو أكثر هدوءاً وانتظاماً بعيداً عن تلك
العواصف التي تضرب لها الدراسة في دار الحكمة . وربما كان
أثره لذلك أبعد في تكوين المجتمع الفكرى يومئذ ، خصوصاً منذ
اضمحلت دار الحكمة ، ثم أغلقت في أوائل القرن السادس . وكان
لإغلاق دار الحكمة بلاريب أثر في نشاط الدراسة بالأزهر
خصوصاً في علوم اللغة والعلوم التي كانت تستأثر بها دار الحكمة^(١) ؛
ونلاحظ أن صفة الأزهر كجامعة رئيسية للعاصمة الفاطمية أخذت

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ وكتاب الولاة والقضاة للسكندى ص ٦١٠

تبدو من ذلك الحين بوضوح . وكان جامع مصر لا يزال يحتفظ بحلقاته ، ولكنها كانت تقتصر في الغالب على حلقات الإقراء والمطارحات الأدبية . ولم يكن لبعث دار الحكمة في عهد الأمر بأحكام الله كبير شأن ، فكان الأزهر منذ أوائل القرن السادس في الواقع أهم معاهد التعليم والدراسة المنظمة في مصر الإسلامية . ماذا ما كانت أنظمة الدراسة بالأزهر في تلك المرحلة من تاريخه ؟ من الصعب أن نقدم عن تلك الأنظمة صورة دقيقة ، وليس فيما لدينا من المصادر عنها أية رواية شافية . بيد أنه يلوح لنا من الإشارات الموجزة أن نظام الدرس بالأزهر قد بدأ على نفس النمط القديم الذي كان متبعاً في مصر وباقي العواصم الإسلامية يومئذ ، ونعني به نظام الحلقات ومجالس الدروس الخاصة . وقد اشتهر نظام الحلقات الدراسية بمصر منذ القرن الثاني للهجرة . وكانت الفسطاط ومسجدها الجامع منذ القرن الأول مركزاً للدراسة الممتازة ، وكانت هذه الدراسة في البداية دينية فقهية ، وفي مهاتها تخرج جماعة من أقطاب الفقهاء والمحدثين مثل يزيد بن حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ والليث بن سعد المتوفى ١٧٥ هـ وعبد الله ابن وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ . وكانت هذه الحلقات على نوعين : عامة وخاصة . فأما العامة فكان مركزها بالأخص المسجد الجامع

أو جامع عمرو ، وكانت حلقاته يومئذ أشهر المجتمعات العلمية والأدبية العامة ؛ وكان المسجد الجامع منذ إنشائه قلب الفسطاط الفكرى ، وقد قام بأعظم دور فى تاريخ الحركة العقلية فى مصر الإسلامية فى القرون الأربعة الأولى للهجرة ، وبين جدرانها كانت توجه حركة التفكير والآداب مدى عصور . ويبدو مما كتبه المؤرخون المعاصرون أن هذه الحلقات كانت دورية ، وكانت منتظمة تعقد كل يوم تقريباً فى المسجد الجامع ، وأهمها ما كان يعقد فى عصر يوم الجمعة ؛ وكانت حلقات الجمعة تعتبر موسماً أسبوعياً حافلاً يغص فيه المسجد الشهير بمجهره الفقهاء والأدباء والقراء ؛ وفيها كانت البحوث الكلامية ، والمناظرات الأدبية ، والمطارحات الشعرية ، والرواية التاريخية ، تنتظم فى حلقات خاصة^(١) .

وكانت العلوم الدينية تحتل المكانة الأولى بين هذه الحلقات ، وفى هذه الحلقات تخرج معظم المحدثين والفقهاء بمصر الإسلامية ، حتى أوائل القرن الرابع الهجرى . وكان منها حلقة الإمام محمد بن إدريس الشافعى الشهيرة فى خاتمة القرن الثانى وفتحة القرن الثالث

(١) راجع ابن زولاق فى كتاب سيبويه المصرى (طبع مصر) ص ٢٢

(١٩٨ — ٢٠٤ هـ) وهى التى تخرج فيها عدة من أقطاب المحدثين والفقهاء فى هذا العهد .

وأما الحلقات الخاصة ، فكان يعقدها كبار الفقهاء والأدباء فى منازلهم ويقرأون فيها دروسهم ومصنفاتهم على الأخصاء من أصدقائهم وتلاميذهم . وكان أشهر هذه الحلقات حلقة بنى عبد الحكم^(١) ، وهم أسرة مصرية نابذة نبغ فيها عدة فقهاء ومحدثين فى أوائل القرن الثالث^(٢) . وكانت حلقاتهم العلمية والأدبية تجذب أكابر العلماء الوافدين على مصر من مختلف الأقطار . ولما قدم الإمام الشافعى الى مصر استقبله بنو عبد الحكم ، وأكرموا وفادته ومهدوا له سبل الإقامة وعاونوه على تنظيم حلقاته ودروسه ، وكانوا فى مقدمة المنتفعين بعلمه وأدبه . وفى أوائل القرن الرابع كانت حلقات الفسطاط العلمية والأدبية فى أوج ازدهارها ؛ واجتمع فى هذه الفترة من زعماء التفكير والأدب فى مصر الإسلامية عدة من

(١) السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) كان حميد الأسرة عبد الله بن عبد الحكم أحد أقطاب الفقه المالكي وقد توفى سنة ٢١٤ هـ وإبناه عبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية وصاحب كتاب « فتوح مصر وأخبارها » وقد توفى سنة ٢٥٧ هـ ومحمد وهو فقيه كبير وقد توفى سنة ٢٦٩ هـ (راجع بن خلكان ج ١ ص ٣١٢) .

الزعماء والأقطاب ، منهم أبو القاسم بن قديد الفقيه والمحدث ،
وتلميذه أبو عمر الكندي مؤرخ ولاية مصر وقضاتها ، وأبو جعفر
النحاس المصري الكاتب والشاعر ، وأبو بكر الحداد قاضي مصر ،
وأبو القاسم بن طباطبا الحسني الشاعر ، والحسن بن زولاق المؤرخ
الأشهر^(١) وكثيرون غيرهم . وكان المسجد الجامع يومئذ جامعة حقة
يموج بهذه الحلقات العلمية والأدبية الشهيرة . وفي هذه الفترة ذاتها
كان الشاعر الأكبر أبو الطيب المتنبي الذي وفد على مصر
سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) ليستظل بحماية الإخشيد يعقد حلقاته
الأدبية في مسجد يعرف بمسجد ابن عمرو ، وهناك يجتمع إليه
الأدباء والشعراء . وكانت حلقة المتنبي بلا ريب من أهم مجالس
الشعر والأدب والفلسفة في هذا العصر^(٢) . وإلى جانب هذه
الحلقات العامة المختلفة كانت ثمة مجالس علمية وأدبية خاصة يعقدها
الأمراء والكبراء أو تعقد تحت رعايتهم . فمثلا كان الأمير محمد
ابن طنج (الإخشيد) وولده أنوجور ووزيرها الخصى النابه كافور

(١) توفي ابن قديد سنة ٣١٢ هـ وأبو عمر الكندي سنة ٣٥٠ هـ
وأبو جعفر النحاس سنة ٣٣٨ هـ وأبو بكر الحداد سنة ٣٤٥ هـ وابن طباطبا
الحسني سنة ٣٤٥ هـ والحسن بن زولاق سنة ٣٨٧ هـ .
(٢) راجع الحسن بن زولاق في كتاب أخبار سيويه المصري (مصر)

والوزيران أبو الفضل جعفر بن الفرات والحسين بن محمد المارداني^(١) من حماة العلوم والآداب ، وكانت لهم أبهاء ومجالس علمية يؤمها كبار العلماء والأدباء^(٢) . والظاهر أن هذه المجالس والحلقات الأدبية الخاصة كانت يومئذ من تقاليد الحياة الرفيعة ، وكانت نوعاً من الترف الذي يأخذ به الأمراء والعظماء . بيد أنها كانت تسبغ في الوقت نفسه على الحركة الفكرية قوة وبهاء .

والخلاصة أن نظام الحلقات العلمية كان وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة في مصر الإسلامية وفي معظم الأقطار الإسلامية الأخرى ، وكان قوام الحياة الجامعية والفكرية في العالم الإسلامي . وكان طبيعياً أن الأزهر حينما أتيح له أن

(١) محمد بن طنج الإخشيد أمير مصر والشام (سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) وكان أميراً عظيماً استطاع أن يستقل بملك مصر والشام في ظل الدولة العباسية وأن ينشئ له ولعقبه فيهما مملكة مستقلة . وخلفه ولده أنوجور واستمرت ولايته على مصر والشام حتى سنة ٣٤٩ هـ . وكافور خادم الإخشيد ووزيره ، ثم وزير ولديه أنوجور وعلى من بعده . وقد استطاع أن يستخلص الإمارة لنفسه بعد موت علي بن الإخشيد سنة ٣٥٥ هـ وتوفي سنة ٣٥٧ هـ . وجعفر بن الفرات من وزراء مصر المشاهير ولي الوزارة للدولة الإخشيدية . ولما فتح القاطميون مصر اعتزل الحياة العامة . وكان عالماً أديباً وتوفي سنة ٣٩١ هـ . والحسين بن محمد المارداني من وزراء مصر أيضاً في أواخر الدولة الطولونية ، وفي عهد الولاة العباسيين في أوائل القرن الثالث ولي خراجها أكثر من مرة ولعبت أسرته دوراً كبيراً في حوادث مصر في هذا العهد .

(٢) ابن زولاق في أخبار سيديوه ص ٣٢ و ٣٤ و ٣٦ وما بعدها .

يدخل هذا الميدان الدراسي ، أن تقوم الدراسة فيه وفقاً لهذا النظام التقليدي المتوارث . ولم يك ثمة نظام آخر يمكن التفكير فيه في عصر لم تكن قد عرفت فيه المدارس بعد . وهكذا بدأت الدراسة في الأزهر في حلقات علمية وأدبية ، واستمرت كذلك على كر العصور . وعقدت أول حلقة للدرس بالأزهر في صفر سنة ٣٦٥ هـ كما تقدم ، وعقدها قاضي القضاة علي بن النعمان وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت وهو الكتاب المسمى « الاقتصار » في جمع حافل أثبتت فيه أسماء الحاضرين . وفي سنة ٣٧٨ هـ أذن العزيز بالله لوزيره ابن كلّس أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة ، وكانوا يعقدون « حلقاتهم » الدراسية بالجامع يوم الجمعة من بعد الصلاة الى العصر ، وهم أول أساتذة أجريت عليهم من الدولة رواتب خاصة حسباً قدمنا . وفي هذين النصين القديمين ما يوضح لنا نظم الدراسة الأساسية بالأزهر ، وهي نظم كان قوامها الحلقة الدراسية فيجلس الأستاذ ليقراً درسه في حلقة من تلاميذه والمستمعين اليه ، وتنظم الحلقات في الزمان والمكان طبقاً للمواد التي تدرس ، ويجلس أستاذ المادة من فقه أو حديث أو تفسير أو نحو أو بيان أو منطق أو غيرها في المكان المخصص لذلك من أروقة الجامع أو أبهائه ، وأمامه الطلبة والمستمعون يصغون اليه ويناقشونه

فيما يعن لهم . وقد استقر هذا النظام بالأزهر منذ البداية واستمر طوال العصور ، وغدا خلال العصور الوسطى أيام الأزهر الزاهرة ، نوعاً من المحاضرة الجامعية الممتازة . وكان لهذه الطريقة على بساطتها كثير من مزايا الدراسة الجامعية لأنها كانت تجمع بين الأساتذة والطلاب في جو من البساطة وعدم الكلفة وتفسح كبير مجال للمناقشة والمحااجة .

ومن بواعث الأسف حقاً أن يكون من آثار نظم الأزهر الجديدة أن تختفي هذه الحلقات الجامعية القديمة من أروقة الأزهر وساحاته اليوم لتحل محلها بعض الدروس الثانوية ، تلقى من آن الى آخر . وقد كانت مدى عصور من مفاخر الجامع الشهير . نشأ الأزهر واستمر طوال العصور حتى عصرنا معهداً حرّاً يؤمه الطلاب من كل صوب ، لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقة أو كلفة . بل كثيراً ما رتبت لهم الى جانب الدراسة الحرة ، إعطية وأرزاق تكفي للإنفاق عليهم في حياتهم الخاصة . وقد كانت هذه وما زالت مفخرة حقيقية للجامع الأزهر يمتاز بها على سائر جامعات العالم ، فلسنا نعرف في العالم المتمدن أية جامعة أخرى تقوم بالإنفاق على تعليم الآلاف المؤلفة من طلابها كما فعل الأزهر خلال حياته الطويلة وكما تفعل الجامعة الأزهرية اليوم .

وان هذه المفخرة الخالدة اليوم لتبدو في عظمتها الحقيقية متى علمنا أن الجامع الأزهر والمعاهد الدينية الملحقة به تضم ١٤١١٦ طالباً منهم نحو ثمانمائة من الطلبة الغرباء من مختلف الأمم ، وأن ميزانية الأزهر التي رصدت للإنفاق على تعليم هذا الحشد الضخم من طلاب الجامعة الأزهرية والمعاهد الدينية بلغت في سنة ١٣٦١ هـ (سنة ١٩٤٢ م) ٣٤٦٦٤٠ من الجنيهات .

وأن الجامعة الأزهرية ما زالت تقدم الى طلبتها في مختلف الكليات والمعاهد إعطية شهرية مالية حلت محل إعطية الخبز القديمة (الجراية) ، وهي إعطية تقدم على ضآلتها معاونة ثمينة للطلاب الفقراء ؛ وأن الجامعة الأزهرية ما زالت تنفق على تعليم المئات من الطلاب الغرباء ، بعضهم يسكن في أروقة الجامع القديمة والبعض الآخر في منازل تستأجرها خصيصاً لإيوائهم^(١)

أنشئ الأزهر كما رأينا ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية ، فكانت الدولة هي التي تتولى الإنفاق عليه كما كان شأن المساجد الجامعة في جميع الأمصار الإسلامية . فلما أنشئت به الحلقات الدراسية الأولى في عهد العزيز بالله كما قدمنا رتب العزيز من ماله

(١) أثبتنا في نهاية الكتاب بعض بيانات وإحصاءات تفصيلية عن عدد الطلبة وأبواب الميزانية وأنصبة الجراية .

أو من مال الدولة أرزاقاً خاصة للأساتذة الذين يتولون الدراسة بالأزهر، ورتب لهم الوزير ابن كلس أيضاً شيئاً من ماله الخاص . ومن ذلك الحين نرى النفقة على الجامع الأزهر ترجع إلى مصدرين أساسيين ، هما الأقباس (الأوقاف) والصدقات العامة والخاصة . فأما الأقباس الخاصة فيرتبها الأكابر والأغنياء على نحو ما فعل الوزير ابن كلس . وأما الصدقات فتشمل نصيب الأزهر من الأعطية والصدقات الخليفة وغيرها مما كان يوهب ويعطى في مختلف المواسم والمناسبات .

وقد انتهت إلينا عن العصر الفاطمي عدة وثائق ونصوص تلقي ضوءاً على موارد الجامع الأزهر في ذلك العصر . وأولى هذه الوثائق وأهمها سجل صدر عن الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله في شهر رمضان سنة أربع مائة بحبس بعض أملاكه من دور وحوانيت ومخازن لينفق من ريعها على الجامع الأزهر وجامع راشدة وجامع المقس ودار الحكمة ، وفيه يفرد لكل منها نصيباً خاصاً ويفصل وجوه النفقة لكل منها . ومن ذلك فيما يختص بالجامع الأزهر رواتب الخطيب والمشرف والأئمة ، وما ينفق على فرش الجامع وتأثيثه وإنارته من الحصر والقناديل والزيت ، وعلى إصلاحه وتنظيفه وإمداده بالماء وغير ذلك مفصلاً تفصيلاً شاملاً يراجع في

هذه الوثيقة التي رأينا أن ننقلها بنصها في ذيل هذا الكتاب نظراً لأهميتها . ويبدو من ديباجة هذا السجل أنه إنما صدر لتأييد سجل سابق صدر عن الحاكم بحبس هذه الأملاك عينها على الجهات المتقدمة مع تعديل في الشروط والتفاصيل ^(١) .

وهذه فيما نعلم أول وقفية ملوكية خاصة رتبت للجامع الأزهر . وذكر لنا المسبّحى مؤرخ الدولة الفاطمية في حوادث سنة خمس وأربعمائة أعنى في عصر الحاكم بأمر الله أيضاً أنه « قرىء في شهر صفر سجل بتحسيس عدة ضياع وعدة قياسر وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع وعلى القوام بها ونفقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها وثمان الألفان » . وفي الشطر الأول من هذا النص ما يدل بأن القراء والأساتذة بالأزهر كانوا من المنتفعين بموارد الأعيان المحبوسة في هذا السجل ^(٢) .

ونقل إلينا المقرئى أيضاً عن الشريف بن أسعد الجواى أن القضاة بمصر كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام يطوفون يومياً على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة يبدأون بجامع المقس ثم القاهرة (وجامع القاهرة هو الجامع الأزهر) ثم المشاهد ثم القرافة ثم جامع

(١) أورد لنا المقرئى نص هذا السجل كاملاً في الخطط (ج ٤ ص

ص ٤٩ — ٥١) (٢) الخطط ج ٤ ص ٨٤ .

مصر ثم مشهد الرأس لنظر حُصر ذلك وقناديله وعمارته وما تشعت منه . وما زال الأمر على ذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية^(١) .

ونستطيع أن نتعرف في هذه النصوص والوثائق القليلة مصدراً من المصادر التي كان الجامع الأزهر يعتمد عليها في حياته كمسجد ومكـمـهـد للدرس وهو مصدر الأحباس العامة والخاصة ؛ وكانت الأحباس في ظل الدولة الفاطمية تحت إشراف قاضي القضاة ولها ديوان خاص^(٢) . وقد نما هذا المصدر واتسع فيما بعد في ظل دول السلاطين حتى غدا أخصب مورد للجامع الشهير .

على أنه كان ثمة للأزهر في العصر الفاطمي غير الأحباس مورد آخر لا يقل عنها أهمية ، بل لعله كان فيما يتعلق بطلبة العلم أخصب وأجدي في النفقة عليهم ، وتيسير سبيل العيش لهم . ذلك هو مورد الأعطية والصدقات العامة والخاصة . وكانت هذه الأعطية والصدقات مالية ونوعية معاً . فأما المالية فكانت تشمل نصيب الأزهر من مال النجوى ، وهي جعل اختياري قدره ثلاثة دراهم ونصف يؤديه الى داعي الدعاة من شاء من المستمعين لمجالس الحكمة ، وكان يُحصل منها مال كثير ينفق على الدعاة ويؤدي

(١) الخطط ج ٤ ص ٨٤ .

(٢) المقرئ ج ٤ ص ٨٣ .

بعضه الى الجامع الأزهر ليفرق في فقراء الطلاب^(١) . وتشمل أيضا كل ما يجود به الكرماء من المال لهذا الغرض . وأما الصدقات النوعية فكانت كثيرة تشمل توزيع أولى الأمر والكبراء الأئمة والخلوى على الطلبة والمساكين بالأزهر وغيره من المساجد الجامعة في مواسم معينة . وقد انتهت اليها في ذلك عدة روايات ونصوص شائعة نقلها اليها المقرئ عن المعاصرين من مؤرخى الدولة الفاطمية . ومن ذلك ما ذكر عن العزيز بالله من أنه كان يقيم سمائاً في جامع القاهرة (الأزهر) لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان^(٢) . وكانت لحوم الأضحية التى تنحر يوم الأضحية في المنجر الخليفى ، ويتولى الخليفة نحرها بنفسه يفرق معظمها على الطلبة بدار العلم ، وعلى المتصدرين بجوامع القاهرة ومنها الجامع الأزهر^(٣) . وذكر ابن الطوير أنه كانت تخرج يوم المولد النبوى الكريم من دار الفطرة صوانى الخلوى من الصباح الى الظهر ، لتفرق فى أرباب الرسوم والقراء والخطباء والمتصدرين بجوامع القاهرة^(٤) . وذكر ابن المأمون أن الخليفة الأمر بأحكام الله كان يطلق فى يوم مولده مقادير عظيمة

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٥٢

(٢) الخطط ج ٤ ص ٦٧

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٠٠

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٩٣

من الخبز والأطعمة والخلوى لتفرق في المساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر (جامع عمرو)^(١)، وذكر لنا أيضاً أنه كان يطلق في ليالى الوقود الأربعة وهي مستهل رجب ونصفه ومستهل شعبان ونصفه برسم جوامع مصر والقاهرة (ومنها الأزهر) جملة كثيرة من الزيت والطيب^(٢)، الى غير ذلك من الروايات والنصوص التي توضح لنا طرفاً مما كان يعمل في هذا العصر في سبيل العناية بالمساجد الجامعة والإنفاق على طلبة العلم ولا سيما طلبة الجامع الأزهر ودار الحكمة، وهما يومئذ أهم المعاهد الدراسية النظامية.

وفي وسعنا أن نرجع نظام الأعطية التي لبث الأزهر حتى العصر الأخير يغدقها على أساتذته وطلابه في شكل كميات من الخبز يومية أو شهرية (الجراية)، والتي استبدلت اليوم بأعطية مالية مماثلة، الى هذا النوع من الهبات والأعطية التي كان ينفع بها الأساتذة والطلاب في العصر الفاطمي.

وقد استمرت هذه الموارد العامة والخاصة تنمو على كر العصور، وتوالت أوقاف السلاطين والأمراء والكبراء على الجامع الأزهر

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٩٢

(٢) الخطط ج ٤ ص ٣٤

خلال العصور الوسطى ، كما كانت تتوالى الأعطية والأرزاق الثابتة والمؤقتة لأساتذته وطلابه . وكان من أجل أعمال البر وأشرفها أن يوقف القادرون من أملاكهم وضياعهم على دور العلم وبخاصة على الجامع الأزهر ؛ وكانت هذه الأوقاف ترتب إما بصفة عامة أو تخصص لأساتذة المذاهب أو الأروقة المختلفة وطلبتها ، أو للأنفاق على تدريس مادة معينة ولاسيما علوم القرآن والحديث ؛ وما زالت هذه الأوقاف في نماء حتى العصر الأخير حيث اجتمع للأزهر منها نصيب حسن يعاونه اليوم معاونة قيمة على أداء مهمته الدينية والثقافية .

وكان الأزهر مذ بدأت فيه الدراسة مفتوح الباب لكل مسلم يقصد اليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يضم بين طلبته دائماً الى جانب الطلاب المصريين عدداً كبيراً من أبناء الأمم الإسلامية يتلقون الدراسة ، وتجري عليهم الأرزاق ، وتقيم كل جماعة منهم في مكان خاص بها . وهذا هو نظام الأروقة الشهير الذي نعتقد أنه بدأ بالأزهر في عصر مبكر جداً^(١) والذي استمر

(١) يستفاد من أقوال المقرئ أن نظام الأروقة قد بدأ بالأزهر منذ

بناء الجامع ذاته (الخطط ج ٤ ص ٥٤) يبدو أنه يلوح لنا أن هذا القول

مبالغ فيه لأن صفة الأزهر الدراسية لم تستقر إلا بعد ذلك بحين .

قائماً حتى العصر الأخير ؛ وما زالت منه الى اليوم بقية بالجامع
الأزهر ، ومعظم سكان الأروقة الباقية اليوم من الطلبة الغرباء .
ويذكر لنا المقرئ أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلزمون
الإقامة بالأزهر في الأروقة الخاصة بهم في عصره ، أعنى في أوائل
القرن التاسع بلغ سبعمائة وخمسين « ما بين عجم وزیالة ومن أهل
ريف مصر ومغاربة » وهو رقم كبير يدل على ضخامة العدد
الذي كان يضمه الأزهر بصفة عامة من طلاب مصر وطلاب الأمم
الإسلامية المختلفة في تلك العصور .

الفصل السادس

المواد والكتب والأساتذة

الأزهر والصبغة المذهبية . العلوم الدينية والمدنية . الأزهر والجامعة
الأوربية . الكتب الدراسية الأولى التي درست بالأزهر . المكتبة
الفاطمية ومكتبة الأزهر . بعض أساتذة الأزهر في العصر الفاطمي .
أثر الأزهر في الحياة العقلية والسياسية

أما مواد الدراسة بالأزهر في هذا العصر فإنه يصعب علينا
استقصاءها بوجه التحقيق . بيد أنه لا ريب أن علوم الدين واللغة
كانت في المقدمة دائماً . وكان للعلوم الدينية بنوع خاص أوفر
قسط ، فعلم القرآن والحديث والكلام والأصول والفقه على
مختلف المذاهب ، وكذلك علوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة
ثم الأدب والتاريخ هذه كلها كانت زاهرة بالأزهر خلال
العصور الوسطى .

وقد كانت الصبغة المذهبية تغلب كما رأينا على الدراسة
بالأزهر ولا سيما في بداية عهدها ، ولم يك ذلك غريباً في ظل دولة
كالدولة الفاطمية تتشح بشوبها المذهبي العميق ؛ وكان من الطبيعي
أيضاً أن تحتل علوم الشيعة وفقه آل البيت من حلقاته الدينية

المقام الأول . بيد أنه يمكن أن يقال من جهة أخرى أن هذه الصبغة المذهبية لم تكن دائماً مطلقة ، ولم تكن دائماً لازماً على الطلاب . ونحن نعرف أن الخلافة الفاطمية بالرغم من استمساكها بصبغتها المذهبية العميقة لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصرى الى جانبها فى هذا المضمار ، ولم تحاول دائماً أن تجرى على سياسة الإرغام فى طبعه بطابعها ، وفى فرض لونها المذهبي على عقائده ؛ بل نراها فى أحيان كثيرة تلجأ فى ذلك الى سياسة الرفق والتسامح . ولنا فى ذلك مثلاً ساطعاً فى المرسوم الدينى الذى أصدره الحاكم بأمر الله — وهو من غلاة الخلفاء الفاطميين — فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) وفيه يقرر بعض الأحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف فى فهمها ، ويحاول أن يوفق فى ذلك بين المذاهب المختلفة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة : —

« يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ؛ يُخمس فى التكبير على الجنائز الخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ؛ لا يسب أحد من السلف

ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف وانخالف فيهم بما خلف ؛
لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده ، والى الله ربه ميعاده ؛ وعنده
كتابه وعليه حسابه . ليكون عباد الله على مثل هذا عملكم منذ
اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض
على صاحبه فيما اعتمده ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله
هذا ، وبعده قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ،
لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، الى الله مرجعكم جميعاً فنبئكم
بما كنتم تعملون »^(١)

وقد رأينا أن الدراسة في دار الحكمة ذاتها وهى الجامعة
الفاطمية المذهبية ، كانت فى البداية حرة تدرس فيها علوم السنة
الى جانب علوم الشيعة ، وأنها تحررت كثيراً من صبغتها المذهبية
حينما أعيدت بعد إغلاقها فى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله ؛ فمن
الواضح إذاً أن الدراسة بالأزهر كانت حتى فى الوقت الذى يشتد
فيه تيار الدعوة المذهبية تحظى دائماً بقسط من الحرية يزيد
أو ينقص وفقاً للظروف والأحوال . وكانت دار الحكمة تستأثر
بعد ذلك بتدريس العلوم المدنية بينما كان الأزهر يقتصر على
تدريس العلوم الدينية . بيد أن هذه الصبغة المذهبية خفت وطأتها

(١) راجع نص هذا المرسوم بأكمله فى ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ .

منذ اضمحل شأن الدولة الفاطمية ، وأخذت تختفي شيئاً فشيئاً . وزالت هذه التفرقة بين العلوم مذ ضعف شأن دار الحكمة ثم أغلقت ، وأخذ الأزهر بنصيبه من العلوم المدنية الى جانب العلوم الدينية . وهناك ما يدل على أن الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات كانت تدرس في هذا العصر بالأزهر في حدود ضيقة ولطبقة خاصة من الطلاب .

وفي أواخر القرن السادس أعني بعد ذهاب الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية نرى الأزهر جامعة حرة تدرس فيها العلوم العقلية أو العلوم المدنية الى جانب العلوم الدينية بصورة منتظمة . فمثلاً نرى بين أساتذة الأزهر في هذه الفترة العلامة عبد اللطيف البغدادي يدرس الطب والفلسفة والمنطق مدى حين^(١) .

بيد أنه لا ريب أن صفة الأزهر الدينية كانت وما زالت تغلب على كل صفة أخرى ، وأن علوم الدين كانت وما زالت خلال العصور تحتل المقام الأول .

وهذه خاصة لم يكن ينفرد بها الأزهر في العصور الوسطى .

(١) راجع ترجمة عيد اللطيف البغدادي في « مناقب الأطباء » لابن أبي صبيحة فيما يرويه عبد اللطيف عن نفسه ، وراجع نفس هذه الترجمة في كتاب « الافادة والاعتبار » لعبد اللطيف (المقدمة) .

ذلك أن الحركة العقلية كانت خلال هذه العصور ترتبط في جميع الأمم بالدين أشد ارتباط ؛ وكانت الأديرة مراكز الدراسة في أوربا والأخبار هم قادة الفكر . بيد أنه لما تقدمت الحركة الفكرية ، وتسربت النظريات الفلسفية الى تعاليم الكنيسة أخذت سيطرة الدين على حركة التعليم تضعف شيئاً فشيئاً .

ولم تلبث الجامعة الأوربية أن نشأت منذ القرن الثاني عشر ثم أخذت تقوى ويشتد ساعدها وتسير نحو استقلالها ؛ واضطرت الكنيسة أن تناصر هذا الاستقلال الجامعي طالما كان بعيداً عن الاصطدام بتعاليمها وتقاليدها ، وذلك خوفاً من أن يقع التعليم تحت سيطرة أمير أو حاكم مطلق يوجهه نحو خصومتها . ولم يأت ختام العصور الوسطى حتى كانت الجامعة الأوربية قد حققت استقلالها العلمي ، وأخذت تسير نحو النور والحقيقة ، بعيدة عن المؤثرات الدينية والسياسية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .

وقد كان التعليم الجامعي يميل منذ البداية نحو التخصص ، وكانت الدراسة تجري تقريباً على نفس الأساليب التي كانت تتبع بالأزهر وباقي المعاهد الإسلامية من الاستيعاب والتخصص ؛ مثال ذلك جامعة بولونيا التي اشتهرت في القرن الثاني عشر بتوفر أساتذتها وطلبتها على دراسة القانون الروماني ووضع حواشيه الشهيرة .

غير أنه يلاحظ أن الجامعة الأوروبية استطاعت أن تتحرر
غير بعيد من روح العصور الوسطى وكل مؤثراتها ، وأن تسير بخطى
سريعة نحو تحديد مهمتها العلمية . هذا بينما بقي الأزهر مدى الأحقاب
وبالرغم من تطور العلوم وأساليب التفكير محتفظاً بصبغته الدينية
العميقة ، مشبعاً في كثير من نظمه وأساليبه بروح العصر القديم .
والواقع أن الجامعة الأوروبية لم تُخرج العلوم الدينية من
حظيرتها ؛ ففي معظم الجامعات الأوروبية كليات أو معاهد خاصة
لدراسة العلوم الدينية وتخرج رجال الدين ؛ ولكنها تجرى في
دراساتها على أساليب عصرية ، وتعنى في نفس الوقت بتدريس
العلوم المدنية عناية تامة ، حتى أن رجل الدين المتخرج فيها لا يقل
في ثقافته المدنية والعصرية عن زملائه المتخرجين في الكليات
الأخرى . وكثيراً ما نرى رجال الدين في الأمم الأوروبية بين قادة
الفكر الممتازين وهم يأخذون فعلاً في قيادة التفكير بنصيب بارز ،
ومنهم علماء أعلام في مختلف العلوم والفنون .

وإذا كان الأزهر القديم قد استحال اليوم إلى جامعة أزهرية
ذات كليات وشعب مختلفة ، وأدخل في مناهجها كثير من العلوم
« المدنية » ، وإذا كانت الجامعة الأزهرية تأخذ اليوم ببعض
الأساليب العصرية في شيء من التحفظ ، فإنه يصعب على الباحثين

من أبناء هذا الجيل أن يتبينوا نتائج هذا التطور الذى ما يزال
اليوم فى مراحل الأولى .

هذا وأما عن الكتب الدراسية التى كانت تدرس بالأزهر
فى العصر الفاطمى ، فليس لدينا أيضا سوى إشارات موجزة جداً .
وأول كتاب درس بالجامع الأزهر هو كتاب « الإقتصار » أو
« الإقصار » الذى وضعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضى
المعز لدين الله فى فقه آل البيت ، وكان يتولى قراءته وتدرسه
بالأزهر ولده أبو الحسين على بن النعمان كما قدمنا . واستمرت
قراءته مدى حين على يد بنى النعمان الذين تعاقبوا فى قضاء مصر
حتى نهاية القرن الرابع . وكان للنعمان القيروانى كتب أخرى فى
فقه الإمامية (الشيعة) ذكر لنا ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله ،
أسماءها وهى كتاب « دعائم الإسلام » ، الذى عني بتدرسه
بالأزهر فيما بعد عناية خاصة كما سنرى ، وكتاب « اختلاف أصول
المذاهب » وكتاب « الأخبار » وكتاب « اختلاف الفقهاء » ،
ومن المرجح أنها كانت تقرأ أو تدرس بالأزهر الى جانب كتاب
« الإقتصار » حتى أواخر القرن الرابع^(١) .

وقد انتهى إلينا بعض هذه المؤلفات الشيعية التى افتتحت بها

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٣١٩ .

الدعوة الى دراسة فقه الإمامية بمصر . ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة من المجلد الأول من كتاب « دعائم الإسلام » ، وعنوانه الكامل « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله . ويقول لنا مؤلفه النعمان القيرواني في ديباجته : « إنه لما اضطربت الأحكام واختلفت المذاهب وانقلبت أوضاعها ، رأى عملا بقول رسول الله : « إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه » أن يضع كتاباً جامعاً مختصراً بما جاء عن الأئمة من أهل بيت رسول الله ، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم في دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام . وهذه الدعائم حسبما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق هي « الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد » ، وهي الموضوعات التي يتناولها المجلد الأول من الكتاب .

كذلك توجد بدار الكتب نسخة مصورة قديمة من كتاب « الأخبار » أو « شرح الأخبار » ، وقد ذكر لنا النعمان القيرواني موضوعه وطريقة تأليفه في مقدمته فيما يأتي : « أثرت منه الأخبار وجمعت من الآثار في فضل الأئمة الأبرار حسبما وجدته ، وغاية ما أمكنني واستطعته ، فصححت ما بسطته في كتابي هذا وألفته ،

بأن عرضته على ولي الأمر وصاحب الزمان والعصر ، مولاي المعز لدين الله أمير المؤمنين عاياه السلام وعلى سافه وخلفه ، وأثبت منه ما أثبتته وصح عنده وعرفه وأثره عن الأئمة الطاهرين ، وأجاز لي سماعه منه ، وبأن أرويه لمن يأخذه عني وعنه عليه السلام ، فبسطت في هذا الكتاب ما أثبتته وأجازته وعرفه ، وأسقطت ما أنكره من ذلك ، وذلك مما نسبته الى أهل الحق المبطلون وحرف من قولهم المحرفون » .

ثم قرئ بالأزهر كتاب ألفه الوزير ابن كلّس في الفقه الشيعي على مذهب الاسماعيلية مما سمعه في ذلك من المعز لدين الله والعزير بالله وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ، وكان يجلس لقراءته وتدريسه بنفسه حسبما قدمنا ، وأفتى الناس بما فيه ^(١) .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك حقيقة تاريخية هامة ، هي أن الكتب الأولى التي قررت للتدريس بالأزهر هي كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية أعني من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها ، وكان لها صبغة رسمية واضحة . وكان التدريس بالأزهر يجري يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية . وشدد في ذلك بادي ذي بدء حتى

(١) راجع الإشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١ ، والخطوط ج ٤ ص ١٥٧ .

أنه في سنة احدى وثمانين وثلاثمائة في عهد العزيز بالله ، قبض على رجل وجد عنده كتاب « الموطأ » للإمام مالك ، وجلد من أجل احرازه (١) .

وفي سنة ست عشرة وأربعمائة ، أمر الخليفة الظاهر لاغراز دين الله ولد الحاكم بأمر الله بأن يدرس الدعاة للناس كتاب « دعائم الإسلام » ، وكتاب « مختصر الوزير » ورتب لمن يحفظهما مالا (٢) والدعاة هم أساتذة دار الحكمة وقد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع الأزهر في أحيان كثيرة (٣) . وقد عرفت موضوع كتاب « دعائم الإسلام » وعرفت مؤلفه . أما « مختصر الوزير » فيلوح لنا أنه هو مؤلف ابن كلّس أعني « الرسالة الوزيرية » .

والمرجح أن كثيراً من الكتب الفقهية التي كانت تدرس بدار الحكمة كانت تدرس أيضاً بالأزهر ؛ ومن الأسف أننا لم نعثر على نصوص أو بيانات أخرى تلقى ضوءاً على أنواع الكتب التي كانت تدرس بالأزهر في هذا العصر في العلوم الأخرى . بيد أنه يمكن أن يقال إنها كانت تشمل مصنفات أعلام الأساتذة المعاصرين الذين

(١) الخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٦٩ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٢٢٦ ، وتاريخ ابن ميسر ص ٦٤ .

انتهت إليهم الرياسة في بعض العلوم أو الذين تولوا التدريس بالأزهر يومئذ؛ مثل العلامة أبي الحسن علي بن إبراهيم الحوفي أمام العربية والنحو وصاحب كتاب اعراب القرآن ، وابن بابشاذ النحوى صاحب كتاب « المقدمة » « وشرح الجمل » ، وابن القطاع اللغوى صاحب كتاب « الأفعال » ، وأبي محمد عبد الله بن برى المصرى أمام اللغة في عصره ، وأبي العباس أحمد بن هاشم المحدث والمقرئ ، وأبي القاسم الرعينى الشاطبى إمام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة في علم القراءات « حرز الأمانى ووجه النہانى »^(١) ، وغيرهم ممن انتهت إليهم الرياسة في هذا العصر ، واعتبرت مصنفاتهم متوناً ومراجع . بل لقد لبثت مصنفات بعض أولئك الأئمة تدرس بالأزهر حتى العصر الأخير مثل قصيدة الشاطبى في القراءات .

كذلك لم نعثر على شيء من أسماء السكتب التى كانت تدرس بدار الحكمة ، وإن كان قد انتهى إلينا شيء عن الدعوة السرية الفاطمية التى كانت تلقن فيها وقليل من رسائل الدعاة وتعاليمهم^(٢)؛

(١) توفى الحوفي سنة ٤٣٠ هـ وابن بابشاذ سنة ٤٦٩ هـ وابن القطاع سنة ٥١٥ هـ وابن برى سنة ٤٩٩ هـ وابن هاشم سنة ٤٤٥ هـ ، والشاطبى سنة ٥٩٠ هـ .

(٢) راجع ما أورده المقرئى عن الدعوة السرية في الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٥ .

ومن المحقق أن كثيراً من الكتب التي ألقت ودرست في هذا العهد ، قد دثر بانتهااء الدولة الفاطمية وحرص الدولة الأيوبية التي خلفتها ، على محور رسومها وآثارها ، فلم يعن كثيراً بتداولها والتعريف عنها .

هذا وقد عنيت الدولة الفاطمية عنايه خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمي مكتبة جامعة يفيض المؤرخون المعاصرون في وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ؛ وكان بها ما يزيد على مائتي ألف مجلد في سائر العلوم والفنون ، في الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب والطب والكيمياء والفلك وغيرها . قال ابن أبي طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر »^(١) . وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد وافر من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة^(٢) ،

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ولعله لم يفق المكتبة الفاطمية في ضخمتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التي بلغت ذروتها في عهد الحكم المستنصر بالله ، وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستائة ألف مجلد .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٣٣٤ .

وكانت في الواقع خلفاً لمكتبة الإسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الأزهر مكتبة خاصة به ؛ وكانت المساجد الجامعة تزود في هذه العصور بمجموعات من الكتب ، ولا سيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الأزهر كان له من خزان الكتب نصيب حسن ، وكانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة ؛ فإن ابن ميسر يقول لنا في أخبار سنة ٥١٧ هـ إنه قد أسند الى داعي الدعاة أبو الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب^(١) ؛ وإسناد الإشراف على خزانة الكتب الى داعي الدعاة ، وهو أكبر رئيس ديني بعد قاضي القضاة ، دليل على قيمتها وأهميتها .

ونستطيع أن نذكر عدة من الأساتذة الأعلام الذين تولوا الدراسة بالأزهر في العصر الفاطمي ؛ وكان في مقدمة أولئك الأساتذة بنو النعمان قضاة مصر ، فكان القاضي أبو الحسن على ابن النعمان أول من درس بالأزهر ، وكان فوق تضاعفه في فقه آل البيت أديباً شاعراً ، وتوفي سنة ٣٧٤ هـ ؛ ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضي محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ؛ ثم ولده

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤ .

الحسين بن النعمان فاضى الحاكم بأمر الله^(١) . ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) كان من الذين تولوا الدراسة بالأزهر يومئذ ؛ فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، ثم صديق ولده العزيز من بعده . ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمى الجديد .

وهناك من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر من كانت لهم بلا ريب صلة علمية بالأزهر فتلقوا دراستهم أو تولوا التدريس فيه ؛ فمنهم المسيبى الكاتب والمؤرخ الشهير ، وهو الأمير المختار عن الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ ؛ وكان من أقطاب الأمراء والعلماء ؛ تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وأخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ؛ ومن المعقول أن يكون المسيبى وهو من أولياء الدولة الفاطمية ، وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين ، دار الحكمة والأزهر . وشغف المسيبى بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو أثر

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣ . وحسن المحاضرة ج ١

ص ٢٦٨ ، وذيل قضاة مصر (ملحق كتاب الكندى) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١ .

ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والمعجائب ، وذكر
 نيلها وأقليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ؛ ولم
 يصلنا هذا الأثر الذى يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة
 الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على
 يد المقرئى وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمة هذا الأثر
 ونفاسته . وكتب المسيحي كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك
 ولكننا لم نلق شيئاً منها^(١) .

ومنهم أبو عبد الله القضاعى الفقيه والحديث والمؤرخ ، وهو محمد
 ابن سلامة بن جعفر . ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها
 سنة ٤٥٤ هـ . وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، تولى
 القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛
 وأوفده المستنصر سفيراً الى تيودورا قيصرية قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ
 (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ؛ وكتب عدة
 مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ ، منها « الشهاب » و « مسند
 الصحاب » وهما فى الحديث ، وكتاب « مناقب الإمام الشافعى »
 و « أنباء الأنبياء » و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ،

(٦) راجع فى ترجمة المسيحي ، ابن خلدكان ج ١ ص ٦٥٣ وحسن

المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ ؛ وبحناً لى فى مجلة الرسالة عدد ١١٥ .

وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره (١).

ومنهم الحوفي النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن إبراهيم ابن سعيد ، وكان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل مدة طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب ، منها كتاب « إعراب القرآن » وكانت وفاته فى سنة ٤٣٠ هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ هـ .

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو وألف فىهما عدة كتب ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الإنشاء فى عهد المستنصر بالله وتوفى سنة ٤٦٩ هـ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى تلميذ القضاعى ؛ كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو وتوفى سنة ٥٢٠ هـ .

(١) راجع فى ترجمة القضاعى ، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ .
والسبكي فى طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ ؛ وبحثاً فى مجلة الرسالة عدد ١١٤ .

ومنهم العلامة المقرئ الشهير أبو القاسم الرعيني الشاطبي الضرير؛
ولد بشاطبة من أعمال الأندلس سنة ٥٣٨ هـ ، وبرع في علوم
القرآن ، واشتهر بالأخص بالتضلع في علم القراءات . وقدم الى مصر
عقب انتهاء الدولة الفاطمية يسبقه صيته وتصدر للاقراء والدرس
بالقاهرة ، فهرع إليه الطلاب من كل صوب ؛ وكان إمام القراءات
في عصره ، ووضع في علم القراءات قصيدته الشهيرة « حرز الأمانى
ووجه التهانى » التى ما زالت الى يومنا متنا من أهم متون هذا الفن ،
وكانت وفاته سنة ٥٩٠ هـ .

ومنهم الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسى ، كان من
أقطاب الفقه الحنفى والتفسير ، وكان أيضاً عارفا بالرياضة والطب ،
وعلم اللغة والتاريخ ؛ وله مصنفات فى التاريخ والفقه ، واشتغل
زمناً طويلاً بالتدريس بالأزهر وتوفى سنة ٥٩٨ هـ .

كان للأزهر بلا ريب أثره فى توجيه الحياة العقلية المصرية
فى هذا العصر (العصر الفاطمى) بيد أن هذا الأثر كان محدوداً
خصوصاً منذ قيام دار الحكمة جامعة الدولة الرسمية وتبوئها مقام
الزعامة فى توجيه الحركة الفكرية . وقد كان أثر الأزهر أقوى
وأشد ظهوراً فى نشر العلوم الدينية ، وتخرج علماء الدين إذ كان

كما قلنا موئل الثقافة الدينية ، بينما كانت دار الحكمة موئل الثقافة المدنية . وعلى أى حال فإن مؤرخ الآداب العربية لا يسعه إلا أن ينوه بما كان للأزهر من أثر في سير الحركة الفكرية أيام الدولة الفاطمية ، وإن كان هذا الأثر لم يبلغ يومئذ ما بلغه فيما بعد من الأهمية والخطورة .

ونلاحظ من جهة أخرى أن أثر الأزهر في توجيه الحياة السياسية في تلك المرحلة الأولى من حياته لم يكن عظيماً . ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تحرص على سلطانها السياسي أشد الحرص ، وتغرق في التمسك بعصبيتها ، ولا تفسح كبير مجال لنفوذ العلماء ، ورجال الدين ؛ ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها الدينية إلا توطيداً لدعوتها السياسية ؛ ولم يكن للدعاة من العلماء ورجال الدين من النفوذ المستقل إلا ما يتجه نحو هذه الغاية ، ويخضع لسياسة الدولة العامة . كذلك لم يكن للفقهاء والمشرعين المستقلين كبير أثر في سير التشريع في ذلك العصر ، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتدى في صوغ قوانينها بمبادئها المذهبية الخاصة ، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نلمس أثراً يذكر لرجال العلم أو الدين في توجيه الحياة السياسية أو التشريعية في العصر الفاطمي ، وهو أثر ظهر فيما بعد قوياً بارزاً في ظل دول السلاطين .

الفصل السابع

المناسبات الدينية والاجتماعية

مهمة المساجد الجامعة . الأزهر مسجد الدولة الفاطمية . صلاة العز
بالأزهر . إقامة الصلوات الرسمية فيه . ركوب العزيز إليه . هيئة صلاة
الجمعة الخليفية بالأزهر . الأذان الفاطمي . الأزهر مركز المحتسب .
الاحتفال فيه بالمولد النبوي وعاشوراء . الأزهر في ليالى الوقود .
عقد مجالس الحكمة فيه

كان للمساجد الجامعة مذ قامت عاصمة الإسلام في مصر ،
صبغة شبيهة بالرسمية ، تقام فيها صلاة الجماعة الرسمية التي يؤمها
الأمير أيام الجمع والأعياد ، وتتلّى من منابرها المراسيم والأوامر
والأحكام ، وتُعقد فيها مجالس القضاء . وكان جامع عمرو أول مسجد
أقيم بمصر الإسلامية ، أول مسجد جامع أسبغت عليه هذه الصفة ،
ولبث يستأثر بها مدى حين ، وأطلق عليه إسم « المسجد الجامع »
منذ إنشائه وهو الإسم الذي غدا فيما بعد علماً على جميع « المساجد
الجامعة » أو المساجد الرسمية في مختلف العواصم والقواعد الإسلامية .
فلما أنشأ العباسيون مدينة العسكر على أثر افتتاحهم لمصر
سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) وأقيم بها « مسجد جامع » هو جامع العسكر

تحوّلت الصفة الرسمية الى المسجد الجديد . ولما أنشأ أحمد بن طولون مدينة القطائع لتكون عاصمة ملكه في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) وأنشأ بها مسجده الشهير ، غدا مسجد الدولة الرسمي ؛ بيد أن قيام هذين المسجدين الجديدين لم ينزع من « المسجد الجامع » (جامع عمرو) ، كل مظاهره وصفاته الرسمية ، فقد لبث محتفظاً بهيبته القديمة ، تقام فيه الجمعة الرسمية أحياناً إلى جانب المسجد الجديد ، ويجلس فيه القاضى أو المحتسب ؛ وفي أيام الدولة الإخشيدية عاد مسجد الدولة الرسمي ، واحتفظ بهذه الصفة مدى حين عقب الفتح الفاطمى ، وأقيمت فيه أول جمعة رسمية دعى فيها للخليفة الفاطمى فى رمضان سنة ٣٥٨ هـ ، ولبثت تقام الجمعة فيه وفى مسجد ابن طولون حتى إنشاء الجامع الأزهر وافتتاحه للصلاة فى السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (١) .

وغدا الجامع الأزهر منذ قيامه مسجد الدولة الفاطمية الرسمي ؛ وفى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٢ هـ ركب المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، عقب مقدمه الى عاصمة ملكه الجديد بقليل ، الى الجامع الأزهر لصلاة العيد ، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها

(١) راجع المقرئى فى الخطط ، ج ٤ ص ٢ ، وابن خلكان ج ١

الناس^(١) ، وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمي بالجامع الأزهر .

واستمر الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمي في ظل الدولة الفاطمية زهاء أربعين عاماً تقام فيه الجمع الرسمية ، ويخطب الخليفة فيه بنفسه في جمع رمضان وفي الأعياد حتى تم إنشاء الجامع الحاكمي أو الجامع الأنور في عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكان الخليفة العزيز بالله قد بدأ بإنشائه منذ سنة ٣٨٠ هـ ، وشهد به الجمعة في رمضان وخطب فيه غير مرة ، ولكنه توفي قبل إتمامه ؛ فعني ولده الحاكم بأمر الله بإتمامه منذ سنة ٣٩٣ هـ ، واستغرق بناؤه عشر سنين . ولما تم بناؤه عني الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة ، وزين بالستور الفخمة والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة الرسمية في رمضان سنة ٤٠٣ هـ وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوماً مشهوداً^(٢) . وألّفى الجامع الأزهر لأول مرة في جامع الحاكم منافساً ينافسه الصفة الرسمية التي استأثر بها حتى ذلك الحين . وكانت الجمعة الرسمية تقام أيضاً من وقت إلى آخر في بعض المساجد الفاطمية الأخرى مثل جامعي راشده والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله ، وكانت

(١) المقرئ عن ابن زولاق في اتعاظ الحنفاء ص ٩٢ .

(٢) المقرئ في الخطط ج ٤ ص ٥٦ .

الخطب الخلافية تلقى في الأزهر والجامع الحاكمي ، وكذلك في جامعي عمرو وابن طولون الذين لبثا يحفظان دائماً بهيئتهما القديمة^(١) ، بيد أن الجامع الأزهر لم يفقد من جراء هذه المنافسة مكانته الخاصة ، بل كان دائماً يعتبر في نظر الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة مسجد الدولة الأول .

وكانت إقامة الجمعة والصلوات الموسمية الجامعة بالأزهر من أخص المظاهر المذهبية الرسمية التي أسبغتها عليه الخلافة الفاطمية ؛ وقد رأينا فيما تقدم أن الجامع الأزهر أنشئ ليكون رمزاً للإمامة الدولة الجديدة ومنبراً لدعوتها ، وقد لبث الأزهر منذ إنشائه محتفظاً بهذه الصفة بالرغم من قيام عدة أخرى من المساجد الفاطمية الجامعة التي نافسته فيما بعد في إقامة الجمعة والصلوات الموسمية ؛ وكان الخليفة يشهد الصلاة أيام الجمع والأعياد الموسمية ، ويخطب فيها بنفسه في أحيان كثيرة ، وكانت خطبة الجمعة الرسمية ما تزال على عهداتها تلقى بالجامع الأزهر حتى أواخر الدولة الفاطمية^(٢) .

وكان الخليفة يلقي خطب الجمعة في شهر رمضان بالجامع الأزهر

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٢) راجع النجوم الزاهرة ع ٥ ص ١٧٦ حيث يذكر أن خطبة الجمعة

كانت تلقى بالأزهر حتى عهد الأمر بإحكام الله (٤٩٦ — ٥٢٥ هـ) .

قبل إنشاء الجامع الحاكي وغيره من المساجد الفاطمية الجامعة ؛
وكان يستريح الجمعة الأولى ويلقى الخطبة في الجمع الثلاث الأخيرة ؛
وكان يركب الى الصلاة في هيئة مخصوصة ويؤديها وفقاً لرسوم
وتقاليد معينة ؛ وقد انتهت إلينا من أقوال المؤرخين المعاصرين نبذ
شائكة في وصف هذه المواكب والرسوم المذهبية الفخمة ، فمثلاً
يقول لنا المسبحي في حوادث سنة ٣٨٠ هـ ما يأتي :

« وفي يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز
بالله الى جامع القاهرة بالمظلة الذهبية ، وبين يديه نحو خمسة آلاف
ماش وبيده القضيب ، وعليه الطيلسان والسيف ، فخطب وصلى
صلاة الجمعة وانصرف ، فأخذ رقاع المتظلمين بيده وقرأ منها عدة في
الطريق ، وكان يوماً عظيماً ذكرته الشعراء »^(١) .

وكان الجامع الأزهر يستأثر منذ عهد المعز لدين الله حتى قيام
الجامع الحاكي بالخطب الرسمية الثلاث في جمع رمضان ، ثم كانت
تلقى هذه الخطب بعد ذلك على الترتيب الآتي : الأولى بالجامع
الحاكي (أو الجامع الأنور) ، والثانية بالجامع الأزهر ، والثالثة
والأخيرة بالجامع العتيق أو جامع عمرو^(٢) . وقد نقل إلينا المؤرخون

(١) المقرئزي عن المسبحي في الخطط ج ٤ ص ٦١ .

(٢) يلاحظ أن بقية من ذلك ما تزال قائمه إلى يومنا حيث يشهد جلالة
الملك صلاة الجمعة الأخيرة في رمضان بجامع عمرو ، وهي المعروفة بالجمعة اليتيمة .



جامع الحاكم بأمر الله « تصوير ادارة حفظ الآثار العربية »

المتأخرون عن ابن الطوير وغيره من المؤرخين المعاصرين هيئة صلاة
الجمعة في هذه الأيام المشهودة . وبيان ذلك أن يركب الخليفة في
موكبه الفخم الى الجامع ، ويخرج من باب الذهب والمظلة بمشدة
الجوهر على رأسه ، وقد ارتدى ثياب الحرير الأبيض الساذجة
توقيراً للصلاة ، ويدخل من باب الخطابة ، وبين يديه القراءة يرتلون
منذ خروجه من القصر ، ومن حوله الجند والركابية . وإذا كانت
الصلاة بالجامع الأزهر فإنه يخرج في موكبه الى الجامع من باب
الديلم الذي غدا باب المشهد الحسيني فيما بعد ؛ ويعبر « الخوخ » ،
(الدروب) السبع الى رحبة الجامع الأزهر ؛ وكانت هذه الرحبة
ساحة شاسعة تقع في الجهة البحرية من الجامع ، وكان يحتشد فيها
الجند كلما قصد الخليفة الى الأزهر ؛ ثم يدخل الخليفة الجامع من بابه
البحري ، ويجوز الى الدهليز الأول الصغير ، ومنه الى القاعة المعلقة
التي كانت برسم جلوسه فيجاس في مجلسه ، وترخى المقرمة الحرير
وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهمسار
الجند ، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم . ويقرأ
المقرئون ، وتفتح أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ، ووضع
الحجاب عليها قبل مقدم الخليفة ؛ وتتخذ الأهبة منذ الصباح
لاستقباله ، فيأتي صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختص

بالخليفة محمولا بأيدي الفراشين المميزين ملفوفاً في العراضى الديبقية ،
 فيفرش في المحراب ثلاث طراحت فاخرات واحدة فوق أخرى ،
 ويعلق ستران يمنة ويسرة ، يكتب في أولهما بالحرير الأحمر سورة
 الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب في الستر الثاني سورة المنافقين كتابة
 واضحة ؛ فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس
 الخليفة ، وعندئذ يصعد قاضى القضاة الى المنبر وفي يده مدخنة لطيفة
 من الخيزران يقدمها صاحب بيت المال وفيها ند خاص بالخليفة ،
 ويخرج بها أعلى المنبر وهو يقبل درجاته . ثم يدخل مقصورة الخليفة
 مسلماً بقوله : « السلام على أمير المؤمنين الشريف — القاضى —
 الخطيب وحة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة
 وحوله الأساتذة المحتسكون والوزراء والأمراء والحرس المسلح ،
 ويصعد الى أعلى المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب
 المنبر ووجهه إليه ؛ فإذا جلس أشار الى الوزير بالصعود فيصعد اليه
 ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى
 يصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلاً للخليفة ، ويقف ضابطاً للمنبر ؛
 وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان
 الإنشاء ، يتلو فيها آية من القرآن الكريم ثم يصلى على أبيه أى
 على بن أبى طالب وجده النبي عليه الصلاة والسلام ، ويعظ الناس

وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل الى نفسه ويتوسل بدعوات نخمة تليق به ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ثم يختتم بقوله : « اذكروا الله يذكركم » فيصعد اليه الوزير ، ويفك أزرة القبة ويعود القهقري ، فينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحت المذكورة في الحراب وحده إماماً ، وخلفه الوزير والقاضي ومن وراءهما الأساتذة والأمراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضي ، وأسمع القاضي المؤذنين فأسمعوا الناس ؛ ويقراً الخليفة في الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر الأيمن ، وفي الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر ، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تبعاً ، ثم يعود الخليفة بموكبه الى القصر والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً ؛ ويتكرر هذا الترتيب والنظام في الجمعيتين الأخريتين (١) .

وكانت تعمل للخليفة كل عام عدة حلل ملوكية تخصص لغرة رمضان وجمعتيه ، للغرة حلة موكبية مكملة مذهبة ، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٦١ و ٦٢ و راجع أيضاً صبح الأعشى في ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

وطيلسانها بياض ، وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها
وطيلسانها شعري ، وتعمل حلل فاخرة أخرى برسم أخى الخليفة
والوزير^(١) .

وكان الأذان من الأمور التي طبعها الفاطميون بطابعهم المذهبي ،
وكان يؤذن وقت الفتح في المسجد الجامع دون غيره ، ثم عم الأذان
تباعاً بقية المساجد الأخرى ؛ وكان يفتتح بالتكبير على نمط أهل
المدينة ، واستمر على ذلك عند إنشاء مدينة العسكر ، ثم مدينة
القطائع ، حتى الفتح الفاطمي .

ولما دخل القائد جوهر بجيشه المظفر ، وشهد صلاة الجمعة في
يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٥٨ هـ بجامع ابن طولون ،
أذن المؤذنون في ذلك اليوم بقولهم : « حى على خير العمل » وذلك
بدلاً من قولهم : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » ؛ ثم أذن
بذلك في المسجد الجامع ، ثم في الجامع الأزهر منذ افتتاحه للصلاة
في رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وعم الأذان الفاطمي بعد ذلك جميع
المساجد الأخرى .

وفي سنة ٤٠٠ هـ ، في عهد الحاكم بأمر الله صدر سجل
بترك النداء في الأذان « بحى على خير العمل » وأن تستبدل في

(١) المقرئى عن ابن المأمون — الخطط ج ٤ ص ٦٣ .

صلاة الفجر بقولهم : « الصلاة خير من النوم » وأن يؤذن بذلك مؤذنو القصر ، وأن يختتموا بقولهم : « السلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله » ؛ وفي ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ ، أمر بالعودة الى النداء « بحى على خير العمل » ؛ وأمر فى سنة ٤٠٥ هـ بأن يمتنع مؤذنو جامع القاهرة (الجامع الأزهر) من قولهم بعد الأذان « السلام على أمير المؤمنين » وأن يقولوا بعد الأذان « الصلاة يرحمك الله » وذلك اقتداء بما أثر عن الأذان أيام رسول الله والخلفاء الراشدين . ثم أعيد السلام على أمير المؤمنين بعد أذان صلاة الفجر ، وكان ذلك من خواص الأذان أيام الدولتين الأموية والعباسية . وكان الأذان أيام الفاطميين يتضمن أيضاً بعض الدعوات المذهبية المحضة كقولهم « محمد وعلى خير البشر » . ولما سقطت الدولة الفاطمية واستبد صلاح الدين بالأمر أمر بإبطال صيغة الأذان الفاطمية وعاد المؤذنون الى اختتام الأذان بالسلام على رسول الله ، إذ لم يكن بمصر يومئذ خليفة يسلم عليه ^(١) .

هذا وقد لبث الأزهر أيام الدولة الفاطمية فضلاً عن صبغته الجامعية التى استقرت وتوطدت على ممر الأيام ، وفضلاً عن إقامة

(١) الخطط ج ٤ ص ٤٤ — ٤٦ .

الجمع والصلوات الرسمية فيه ، مركزاً لكثير من المظاهر والمناسبات الرسمية الأخرى .

فمن ذلك أنه كان مركز المحتسب ؛ وكان منصب المحتسب من أهم المناصب الدينية في الدولة الفاطمية ، وهو الثالث عندهم بعد قاضي القضاة وداعى الدعاة ، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة ، وله نواب في جميع أنحاء القطر ، ويجلس بالجامع الأزهر وجامع مصر (جامع عمرو) يوماً بعد يوم ^(١) ؛ وكانت مجالس القضاء تعقد قبل قيام الجامع الأزهر بجامع عمرو ، والجامع الطولوني .

ومن ذلك أنه كان مركز الاحتفال الرسمي بالمولد النبوي الكريم ؛ ففي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول يركب القاضي بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة صواني الحلوى التي أعدت بالقصر لتفرق في أرباب الرسوم كقاضي القضاة وداعى الدعاة وقراء الخضر والخطباء وغيرهم ، فيجلسون في الجامع مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يعودون في موكبهم إلى القصر ، وينتظرون تحت المنطرة التي يجلس فيها الخليفة ، ثم تفتح إحدى طاقات المنطرة ويبدو منها وجه الخليفة ، ثم يخرج أحد

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

الأستاذين المحنّكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ،
ويقرأ القراء ويخطب الخطباء بترتيب معلوم ، فإذا انتهى الحفل
أخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام كما تقدم ثم تغلق الطاقتان
وينصرف الناس ^(١) .

وكان الاحتفال الحزن بيوم عاشوراء ، أو ماتم عاشوراء يقام
بالجامع الأزهر قبل إنشاء المشهد الحسيني في سنة ٥٤٩ هـ ؛ وكان
هذا الحفل من أغرب المظاهر المذهبية التي رتبها الدولة الفاطمية
لإحياء ذكرى الحسين . ففي العاشر من الحرم يحتجب الخليفة عن
الناس ، وفي الضحى يركب قاضى القضاة والشهود ، وقد ارتدوا
ثياب الحداد ، الى الجامع الأزهر (أو المشهد الحسيني فيما بعد) في
حفل من الأمراء والأعيان وقراء الحضرة والعلماء ، ثم يأتى الوزير
فيتبوأ صدر المجلس ، ويجلس الى جانبه قاضى القضاة وداعى
الدعاة ، والقراء يتلون القرآن ، ثم ينشد قوم من الشعراء أشعاراً
في رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ويضج الحضور بالبكاء
والعويل ؛ ثم ينصرف الوزير الى داره ويستدعى القوم الى القصر
وقد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط ، فيجدون صاحب الباب فى
انتظارهم فيجلس القاضى والداعى الى جانبه ، والناس على اختلاف

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

مراتبهم ، ويقراً القراء وينشد المذشدون على النحو السابق . ثم يمد في القاعة سباط الحزن عند الظهر ، وليس فيه سوى العدس والألبان والأجبان الساذجة والأعسال النحل والخبز الأسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام ؛ فإذا انتهى القوم انصرفوا الى دورهم . ويم الحزن والنواح القاهرة في ذلك اليوم ، وتعطل الأسواق ويعتكف الناس حتى العصر ، ثم تفتح الأسواق وتسترد العاصمة شيئاً من نشاطها ومظهرها العادى^(١) .

وفي ليالى الوقود الأربع ، وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، كان الخليفة يقصد مساء الى منظره الجامع الأزهر ، وكانت بجواره من الجهة القبلىة وتشرف عليه ؛ ويجلس الخليفة فى هذه المنظره ومعه حرمه ، وذلك لمشاهدة الزينات المضيئة والاحتفالات الفخمة التى كانت تقام فى تلك الليالى الشهيرة^(٢) . وإليك كيف يصف لنا المسبحى بعض هذه الليالى . قال فى حوادث شهر رجب سنة ٣٨٠ هـ « وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف الى جامع القاهرة (يعنى الجامع الأزهر)

(١) راجع خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩١ ، والنجوم الزهرة

ج ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٨١ و ٣٤٥ .

عوضاً عن القرافة ، وزيد فيه في الوقيد على حافات الجامع ، وحول
صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم في كل سنة ، والأطعمة
والحلوى والبخور في مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وحضر القاضي
محمد بن النعمان ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ،
وقدمت إليه سلال الحلوى والطعام ، وجلس بين يديه القراء وغيرهم
والمنشدون والناحية وأقام الى نصف الليل ، وانصرف إلى داره بعد
أن قدم الى من معه أطعمة من عنده وبخرهم . وقال في حوادث
شعبان من نفس السنة « وفي ليلة النصف من شعبان كان للناس
جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضي
محمد بن النعمان في جميع شهوده ووجوه البلد ، ووقدت التنانير
والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ، ووضع الشمع على المقصورة
وفي مجالس العلماء ، وحمل إليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى ،
والبخور فكان جمعاً عظيماً »^(١) .

وهكذا كانت ليالى الوقود من المناسبات العامة التي يتبوأ فيها
الجامع الأزهر مكانة خاصة فيخرج الناس اليه من كل فج ، ويبدو
فيها المسجد الشهير كأنه شعلة من النور ، وتضاء في جوانبه وعلى
حافته المشاعل والوقدات الساطعة ، ويعقد في صحنه مجلس حافل

(١) المقرئ عن المسبجى — الخطط ج ٢ ص ٣٤٥ .

من القضاة والعلماء برياسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم بسلال من الأطعمة والحلوى الفاخرة ، وتضاء جميع المساجد الأخرى وتبدو العاصمة الفاطمية كلها فى حلل بديعة من الأنوار الساطعة .

هذا وقد وصف لنا مؤرخو الدولة الفاطمية أيضاً الموكب الرسمى الذى كان ينظم فى ليالى الوقود ، عقب الغروب ، ويتقدمه القاضى ، ومن حوله الفراء والمؤذنون ويسيرون على ضوء المشاعل والشموع الساطعة الى القصر ، ثم ينتظمون فى ميدان بين القصرين تجاه باب الزمرد ، أحد أبواب القصر الغربية ، وينتظرون هنالك حتى يطل عليهم الخليفة ويحييهم من إحدى طاقات المنطرة الخلافية^(١) .

كذلك كان الجامع الأزهر أيام المعز والعزیز والحاكم ، مركزاً لمجالس الحكمة الفاطمية . وكانت هذه المجالس الشهيرة التى رتبها الخلافة الفاطمية لبث دعوتها وتوطيد امامتها تتخذ صورة الدعوة الى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها ؛ وكان يقوم بالقاء هذه الدروس المذهبية أيام المعز بنو النعمان وهم أسرة مغربية ناهية قدمت فى ركاب الخليفة الفاطمى ، وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن ؛ وكانت مجالس الحكمة تعقد أحياناً فى القصر وأحياناً فى الجامع

(١) راجع خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٤٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

الأزهر ، ويشترك في قائمتها بعض كبراء الدولة مثل الوزير ابن
كلس وزير المعز ثم ولده العزيز ؛ ثم عهد بعد ذلك الى داعي الدعاة
بالإشراف على تنظيم هذه الدعوة وبشها ، ووضعت لها نظم ورسوم
خاصة ، وأحييت مجالس الحكمة يومئذ بشيء من التحفظ واستحالت
الى نوع من الدعوة السرية تلقى في الخاصة قبل كل شيء ، وتعقد
مجالسها في القصر ؛ وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس ،
فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر .
وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً بنفسه أو بواسطة
نقبائه ونوابه ؛ وكانت الدعوة تنظم طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان
فلا يتلقى الكافة سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة
بالخاصة والمستنيرين الى مراتبها وأسرارها العليا^(١) .

ولسنا نعرف أية مناسبة أخرى غير مجالس الحكمة الفاطمية
يمثل فيها النساء في الجامع الأزهر في ذلك العصر لشهود نوع من
القراءة والدرس ؛ بيد أنه يوجد ما يدل على أن النساء كن يظهرن
أحياناً في بعض العصور المتأخرة في حلقات الأزهر الدراسية ؛ وقد
كان من هؤلاء أم زينب ، فاطمة بنت عباس المعروفة بالبغدادية ،

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

وراجع كتابي الحاكم بأمر الله ص ١٦١ - ١٦٣ .

التي توفيت سنة ٧١٤ هـ ، وكانت فقيهة وافرة العلم وانتفع بعلمها
كثير من نساء مصر ودمشق^(١) وذكر الجبرتي أيضاً ما يفيد أنه
كان ثمة سيدة فقيهة عمياء تحضر دروس الشيخ عبد الله الشرقاوى
شيخ الجامع الأزهر في أوائل القرن الثالث عشر الهجرى^(٢) ، وتلك
أمثلة نادرة .

(١) راجع خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٩٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطى
ج ١ ص ١٨٢ .
(٢) ورد ذلك فى ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوى فى حوادث سنة
١٢٢٨ هـ (ج ٤ ص ١٧٢) .

الفصل الثامن

الأزهر في عصور السلاطين والعصر التركي

سقوط الدولة الفاطمية . تعطيل خطبة الجمعة بالأزهر وإعادتها في عهد الظاهر بيبرس . قيام المدارس في مصر ومنافستها للأزهر . الأزهر في القرن التاسع الهجري . زعامته الثقافية في ظل السلاطين . الفتح العثماني وانتهاء الحركة الفكرية في مصر . مهمة الأزهر في حماية العلوم الإسلامية واللغة العربية .

لبث الجامع الأزهر في ظل الدولة الفاطمية زهاء قرنين يتمتع بالرعاية الرسمية كمسجد للدولة ، وصفته الجامعية كمعهد للقراءة والدرس ؛ فلما انهارت دعائم الدولة الفاطمية أيام العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين ، واستأثر صلاح الدين وزير العاضد بالأمر ، عمد الى إزالة شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها وآثارها المذهبية ؛ فقطع اسم العاضد من الخطبة ودعا للخليفة العباسي ، وأبطل الأذان الفاطمي ، وغزل قضاة الشيعة ، وعين في منصب قاضي القضاة قاضياً شافعيًا هو صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فكان تعيينه إيذاناً بانتشار مذهب الشافعي في مصر . وأفتى ابن درباس وفقاً لرأى الشافعي بأنه لا يجوز إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد فأبطل إقامة

الجمعة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الخاكي بحجة أنه أوسع رحابا .
وقد كان الجامع الخاكي أيضاً من المساجد الفاطمية ، وكان في
وقت ما يتمتع الى جانب الأزهر بالصفة الرسمية . ولكن الأزهر
كان منذ البداية مسجد الدولة ومنبرها الرسمي ، وكان يستأثر معظم
الوقت بالصفة المذهبية ، وكان حرمانه من إقامة الجمعة يرجع بلاريب
الى هذه الصفة . ولبثت إقامة الجمعة معطلة بالجامع الأزهر نحو مائة
عام من سنة ٥٦٧ هـ الى سنة ٦٦٥ هـ في عصر الملك الظاهر بيبرس بن
ففي تلك السيرة سعى الأمير عن الدين أيمن الحلبي نائب السلطنة في
إعادة الصلاة بالجمعة الى الأزهر . وكان الأمير يقيم في قصره بالمحوطة
بالأزهر من الجهة الغربية البحرية في المكان الذي أقيمت فيه
الندوة الاقضية فيما بعد . وقد رأى تقرباً الى الله أن يعمل على
تجديد عمارته وإحياء ما أثره ؛ فسعى لدى السلطان في ذلك وتبرع
الى جانب ما قرره السلطان بجملة كبيرة من المال ، وقام على تجديد
الأزهر وعمارته وتجميله وتأثيثه ، وأنشأ فيه مقصورة ومنيراً جديدين
ورتب فيه درسا لقراءة الفقه الشافعي ، واسترد له كثيراً من أوقافه
لمغصوبة بيد الناس . ثم سعى الى إعادة الجمعة فيه باستفتاء علماء
العصر فأفتى بعضهم بجوازها ، وأفتى بالمنع قاضي القضاة ، وهو
يومئذ تاج الدين (ابن) بنته الأغل وغيره ، وانظر على فتواه رغم

تدخل السلطان فعمل الأمير ايدمر بفتوى المجيزين ، وأقيمت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر يوم الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ في حفل من الأمراء والأكابر ؛ ولم يحضر السلطان ولا قاضى القضاة ولكنه كان مع ذلك يوماً مشهوداً استعاد فيه الأزهر مركزه الدينى القديم^(١) .

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر فى تلك الحقبة لم يبطل صفته الجامعية ، فقد لبث محتفظاً بصفته كمعهد للدرس والقراءة . ومع أنه لم يكن يحظى فى ذلك العصر بكثير من الرعاية الرسمية ، فإنه لبث مع ذلك محتفظاً بكثير من هيئته العلمية القديمة ، فنراه مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادى الذى وفد على مصر فى سنة ٥٨٩ هـ أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ، وتولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز فى سنة ٥٩٥ هـ^(٢) .

وفى عهد الدولة الأيوبية بدى بإنشاء المدارس فى مصر ، واقتدى السلطان صلاح الدين فى ذلك بما فعله الملك العادل

(١) السلوك فى دول الملوك للمقرئى ج ١ ص ٥٥٦ و ٥٥٧ والخطط ج ٤ ص ٥٢ و ٥٣ .

(٢) كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (مصر) فى المقدمة .

نور الدين زنكي في الشام من إقامة المدارس في دمشق وحلب ؛ وكانت أول مدرسة أقيمت بمصر على هذا النحو المدرسة الناصرية التي أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ بجوار المسجد الجامع (جامع عمرو) لتدريس الفقه الشافعي . وفي نفس العام أنشأ السلطان على مقربة منها مدرسة لتدريس الفقه المالكي عرفت بالمدرسة القمحية نظراً لما كان يفرق في طلابها من قمح تغله ضيعتها بالفيوم ، وهي المدرسة التي تولى التدريس فيها فيما بعد المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون . ثم توالى إنشاء المدارس في مصر والقاهرة على أيدي السلاطين والأمراء والكبراء ، وكثر عددها في القرنين السابع والثامن كثرة ظاهرة . وكان إنشاءها يجري في الغالب على قاعدة التخصص ، فبعضها ينشأ للشافعية والبعض الآخر للحنفية أو المالكية أو الحنابلة ، وينشأ البعض لتدريس الفقه أو الحديث أو علوم القرآن ، وقليل منها ينشأ على قاعدة التعميم كالمدرسة الصلاحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٤١ هـ ، ورتب فيها دروساً للطلاب من المذاهب الأربعة .

وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن ، أثر كبير في سير الدراسة بالجامع الأزهر ؛ فقد نافسته منافسة شديدة ، واجتذبت إليها الطلاب من كل صوب ، كما

اجتذبت اليها اعلام الأساتذة لكونها كانت تمتاز على الأزهر بلجدة وفاء
 وفورة المواقفها والمتميز بها برعاية المصلحين والكبراء من مشايخها
 ومن الهمم؛ لكونها كانت مقاصب التدريس فيها مفرجة لتدار على شأغلها
 الجزاء الحسن، فكانت تؤثرها أعلام الأساتذة ويختلفون في الفوز
 بها، ومن ثم فإن الأزهر كان يجوز في هذه الفترة الطويلة العصر
 لكونه، بلغة أمة كان ليضم اليه الطلاب دائماً العذو لهم نظراً لانتساع
 مجال الداراسة فيه وتنوعها، إذ كان مفتوحاً للطلاب من كل
 منتهى، وقد رعى به لاثرة العلوم الدينية واللغوية، وهو ما لم يكن
 ميسوراً في المدارس التي أنشئت على قاعدة التخصص له من جهة أخرى
 فقلنا كان الأزهر مقصد الطلاب العرب لخلق شكل صوباء، وكان
 يقطن في أوقته منهم عديد كبير، وبلغ عددهم في أواخر القرن
 الثامن زهاء مئتين وخمسين طالباً^(١)، وفيه دقايق أعيان
 من دولستان نجدا في تلويع الأزهر في تلك الفترة، كثير أهلها
 الأساتذة الذين يقولون: التديسين فيله إذا كان معظمهم من خيرة
 التدريس في المدارس؛ وكانت المدارس ثلثان للناصرة والسمكية
 وقبة الشافعية والمشهد الحسيني والشيخونية واليتوقية والمؤيدية
 والاشرفية والظاهرية وجامع الحكام والجامع الطولوني وغير هاتين
 (٢) المقرري ج ٤ من ٤٤. هـ

المفضلة، وهي التي تسلبنا ثمرات مجهود معظم العلماء البارزين طوال القرنين
 السابع والثامن الهجريين. هذا شأنها من كمال بساطتها وسهولتها
 وقد بلغت الحركة العلمية والأدبية في منظر الإسلاميين لأزدها
 من التقدم والازدهار في أواخر القرن الثامن الهجري، وأوائل
 القرن التاسع، وتحفل القرون التسع بالأخلاق بعدد كبير من الأساتذة
 البارزين في سائر العلوم والفنون؛ وساهم الأزهر إلى جانب المدارس
 الأخرى بنصيبه في إعداد عناصر هذه الحركة، وبوفى تخريج العدد
 الجهم من أبنائها، ويبدت أنه ليس في أبنائه العصر ما يدل على أن
 الأزهر كان في تلك الفترة متفوقاً على المعاهد الأخرى في المستوى
 العلمي والثقافي، يتفوقاً مع ما ضيقه أو مكانته التاريخية؛ والله
 أعلم. من الغريب حقاً أن ترى معظم الأئمة في هذا القرن يقولون
 التدريس في معظم المعاهد الأخرى كالوقيل منهم يقولون التدريس
 بالجامع الأزهر. فالخلفاء بن حجر والمقرئ والدين الغيني،
 ومراجع الدين البلقيني، وشرف الدين المناوي، وشمس الدين السخاوي
 وجلال الدين السيوطي^(١) وغيرهم من الأقطاب، إنما يتعاقبون في
 كراسي التدريس أو للعبادة بمدارس العصر التي تتقدم ذكراً؛

(١) توفي ابن حجر سنة ٨٥٢ هـ والمقرئ ٨٤٥ هـ والدين الغيني ٨٥٥ هـ
 والبلقيني ٨٦٨ هـ والمناوي ٨٧٧ هـ والسيوطي ٩١١ هـ.

ولسكننا قلما نجد لهم ذكراً في ثبت أساتذة الأزهر . أجل تصدر
قلائل منهم للدرس بالأزهر أمثال المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ،
وابن الدماميني إمام النحوي في عصره ^(١) والفخر البليسي الضير
أستاذ القراءات وإمام الأزهر ؛ وتولى ابن حجر خطابة الأزهر
حيناً ^(٢) . ولكن جبهة الأئمة والأساتذة كانت تحتشد كما قلنا في
المدارس والمعاهد الأخرى .

على أنه يوجد مع ذلك في أنباء العصر ما يدل على أن الأزهر
كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانته الخاصة ؛ يعاونه في ذلك اتساع
حلقاته وأروقته ، وتنوع دراساته ، وهيبته القديمة ، وما يلاقيه
الطلاب فيه من أسباب التيسير في الدراسة وأحياناً في الإقامة .
وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع أي منذ عفت معاهد بغداد
وقرطبة ، كعبة الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامي ،
وغدا أعظم مركز للدراسات الإسلامية العامة . ومنذ القرن الثامن
الهجري يتبوأ الأزهر في مصر وفي العالم الإسلامي نوعاً من الزعامة
الفكرية والثقافية . وفي أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر
كان يتمتع في ظل دولة السلاطين برعاية خاصة ، وكان الأ كابر

(١) توفي ابن خلدون سنة ٨٠٨ هـ وابن الدماميني سنة ٨٢٧ هـ .

(٢) راجع التبر المسبوك للسخاوي ص ١٣١ و ٢٣١ .

من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد . وكان هذا النفوذ يصل أحياناً الى التأثير في سياسة الدولة العليا ، وأحياناً في مصائر العرش والسلطان .

وربما كانت هذه الفترة في الواقع هي عصر الأزهر الذهبي من حيث الإنتاج العلمي الممتاز ومن حيث تبوئه لمركز الزعامة والنفوذ .

وفي أواخر القرن التاسع أخذت الحركة الأدبية في مصر الإسلامية في الاضمحلال ، وذلك تبعاً لاضمحلال الدولة المصرية والمجتمع المصري . وكانت دولة السلاطين قد شاخت وأخذت تسير نحو الانهيار بخطى سريعة ؛ وتصدع بناء المجتمع المصري وأخذ في الانحلال والتفكك ؛ واضطربت أحوال المعاهد والمدارس المصرية وتضاءلت مواردها ، وفقدت كثيراً مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين والأمراء ؛ وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول والركود . ولم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة فانهارت الدولة المصرية ، وفقدت مصر استقلالها التام وسقطت صرعى الغزو العثماني سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) .

وكان الفتح العثماني لمصر أشنع ضربة أصابت المدينة الإسلامية

مذ قضي التتار على الدولة العباسية في منتصف القرن السابع الهجري وقوضوا صروح المدنية الإسلامية في المشرق ؛ وكانت مصر مستودع هذا التراث الباذخ ولا سيما بعد أن سقطت قواعد الأندلس المسامة في يد اسبانيا النصرانية ، وعفت معاهدها وحضارتها الشهيرة ، وسقطت غرناطة آخر معاقلها قبل الفتح العثماني لمصر بنحور بع قرن فقط . وكانت المدنية الإسلامية تتألق بعلومها وفنونها في ظل دول السلاطين المصرية منذ ثلاثة قرون فجاء الفتح التركي بويلاته ليطفىء هذا السراج المنير مدى ثلاثة قرون أخرى .

وكما قضى ديوان التحقيق الاسباني^(١) على حضارة الأندلس وعلومها وفنونها وفقاً لخطّة منظمة ، فكذلك عمل الغزاة الترك على تقويض صرح المدنية الإسلامية في مصر عقب الفتح مباشرة . وقضى السلطان سليم فاتح مصر في القاهرة زهاء ثمانية أشهر يجمع من تراث مصر وثروتها الفنية كل ما استطاع ، ويخرب المساجد والآثار الخالدة ، لينتزع منها نفائسها الفنية ، ويبعث بها الى قسطنطينية ، ويقبض على أكبر مصر وزعمائها وعلمائها ، ورجال المهن والفنون فيها ومهرة الصناعات والعمال ، ويرسلهم جموعاً حاشدة في السفن الى

(١) هو المعروف خطأً بديوان التفتيش Inquisition .

قسطنطينية^(١)، وينتزع الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعها مكاتب العاصمة التركية . وما زالت منها الى اليوم بقية كبيرة في مكاتب استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجري المصريين مثل المقرئى ، والسيوطى ، والسخاوى ، وابن إياس ، مما يندر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمى .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر الإسلامية عقب الفتح التركى كما انهارت عناصر القوة والحياة فى المجتمع المصرى ، وتضاءل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة ، واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التى أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة يبدو شعاعها الضئيل من وقت الى آخر .

وأصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، واختفى من حلقاته كثير من العلوم التى كانت زاهرة به من قبل ، حتى أن العلوم الرياضية لم تكن تدرس به فى أواخر

(١) يعقد ابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى فصلاً خاصاً يذكر فيه أسماء مئات من الأكابر والعلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى قسطنطينية (بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

القرن الثاني عشر ؛ وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والى مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) ، للشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر يومئذ وأنكره فى حديث أورده الجبرقى^(١) ، يدلى بما آلت إليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركى من التأخر والركود . على أن الجامع الأزهر يقوم عندئذ بأعظم وأسمى مهمة أتيج له أن يقوم بها . فقد استطاع خلال الحقبة الشاملة أن يستبقى شيئاً من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التالى وهيبته القديمة فى نفوس الغزاة أنفسهم ؛ فنجد الفاتح التركى يتبرك بالصلاة فيه غير مرة^(٢) ، ونجد الغزاة يتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه مكاناً خاصاً ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية . وفى خلال ذلك يغدو الأزهر ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة ، ويغدو بنوع خاص معقلاً حصيناً للغة العربية ، تحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ، ويدراً عنها عادية التدهور النهائى ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ، وردها عن التغلغل فى المجتمع المصرى^(٣) .

(١) عجائب الآثار ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) راجع ابن إياس فى بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٦ و ١٣٢ .

(٣) كان بين الأساتذة الذين تولوا التدريس بالجامع الأزهر فى أوائل العصر العثمانى ، نور الدين على البحرى الشافعى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ والعلامة =

وهكذا استطاع الأزهر في تلك الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية أجل الخدمات . وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركي ملاذاً لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية من سائر أنحاء العالم العربي والعالم الإسلامي ، فأكبر الفضل في ذلك عائد إلى الأزهر . وقد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها أن تحمي هذا التراث نحو ثلاثة قرون حتى انقضى العصر التركي بمنحه وظلماته ، وقيض لها أن تبدأ منذ أوائل القرن التاسع عشر حياة جديدة يمازحها النور والأمل .

== شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وشمس الدين الشيشيني القاهري الشافعي ، والامام شمس الدين أبو عبد الله العلقمي المتوفى سنة ٩٦٢ هـ ؛ والامام شمس الدين الصفدي المقدسي الشافعي المتوفى في حدود التسعين وتسعمائة (راجع في تراجم هؤلاء العلماء ، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة — مخطوط بدار الكتب) .

وكان منهم في أواسط العصر العثماني : عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي المتوفى سنة ١٠٩٩ هـ ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمنائي المتوفى سنة ١١٠١ هـ ، والعلامة شمس الدين محمد بن محمد الشهير بالشربنابلي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ ، والامام العلامة ابراهيم بن محمد بن شهاب الدين البرماوي المتوفى سنة ١١٠٦ هـ والشيخ حسن بن علي بن محمد الجبرتي جد والد الجبرتي المؤرخ ، وقد توفي سنة ١١١٦ هـ ، والعلامة عبد الحى بن عبد الحق الشرنبلالي المتوفى سنة ١١١٧ هـ (راجع في تراجم هؤلاء العلماء عجائب الآثار للجبرتي ، الجزء الأول) .

وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها الى
الجامع الأزهر في تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية ،
والعالم الإسلامي بأسره ، هي أعظم ما أدى الأزهر من
رسالته ، وأعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه
الطويل الحافل .

وجدد من بعده الخليفة الحافظ لدين الله . وهكذا لبث الأزهر طوال أيام الدولة الفاطمية مشمولاً برعاية الخلفاء الفاطميين واهتمامهم ، وعنايتهم بسائر شئونه .

وقد انتهت إلينا عن إدارة الأزهر الداخلية في العصر الفاطمي إشارات عديدة تلقى ضوءاً على حقيقة النظام الذي كان متبعاً في إدارته في ذلك العصر . ففي سجل الوقف الذي رتبته الحاكم بأمر الله لمساجد القاهرة في سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ، والذي نقل إلينا المقرئ نصه الكامل نجد الإشارات الآتية :

١ — فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الإشهاد الخمس والثلثون ونصف السدس ونصف التسع يصرف فيما فيه عمارة له ومصلحة ، وهو من العين المعزى الوزن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثلث دينار ، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً . . .

٢ — ومن ذلك لأرزاق المصلين يعني الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين لكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار وثلث دينار في كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران في كل شهر . ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع في

كل سنة أربعة وعشرون ديناراً . .

٣ — وفي سجل الوقف المذكور إشارات أخرى الى قيمة ما رصد لكسوة الجامع الأزهر من الحصر ، ولتبخيريه في رمضان وفي أيام الجمع من العود الهندى والكافور والمسك ، وما يلزم لكنسه وإنارته من مؤن القناديل والتنانير من الملح والزيت والسلاسل والحبال وغيرها ، ولوضع أزيار الماء فيه ، وما يدفع للعمال والخدم الذين يقومون بفرشه وتنظيفه وأداء جميع ما يطلب لتجهيله وإعداده للمصلين والطلاب .

ونقل إلينا المقرئ في مواضع أخرى إشارات لبعض مؤرخى الدولة الفاطمية عن « خطيب الجامع الأزهر » . من ذلك ما نقله عن ابن الطوير في تقديم خطيب الجامع الأزهر في إلقاء الخطبة بين يدى الخليفة في أيام المواليد الستة التى كانت تحتفل بها الخلافة الفاطمية ، وهى المولد النبوى ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة القائم^(١) .

كذلك نرى « خطيب الجامع الأزهر » يذكر في وصف الاحتفال بليالى الوقود حيث يخطب أيضاً بين يدى الخليفة فى هذه

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٧٦ .

الليالى الأربع متقدماً زملاءه من خطباء المساجد الأخرى^(١).
 نستطيع أن نستخلص مما تقدم أن الإشراف على الجامع
 الأزهر كان يجرى فى ظل الدولة الفاطمية على النحو الآتى :
 فما تعلق بإصلاحه وعمارتها والإنفاق عليه يرجع أمره الى
 الخلفاء أو من يختارونه لذلك من الأمراء والوزراء .
 وما تعلق بشئون الصلاة يرجع الى الخطيب والى عدد من
 الأئمة والقومة والمؤذنين . والخطيب فى الواقع هو رئيس الجامع الدينى
 وهو الذى يتولى الخطابة فى الصلوات الجامعة ، والحفلات الدينية
 الرسمية بين يدي الخليفة أو نائبه ، ويدير شئون المسجد الدينية
 بوجه عام .

وتظهر أن وظيفة « خطيب » الجامع الأزهر لبثت لمجاناً فى
 الأهمية على مر الزمن تبعاً لنمو أهمية الأزهر نفسه ، فتراها فى أواخر
 الدولة الفاطمية تسند الى رجال من أصحاب المناصب الدينية الرفيعة
 مثل داعى الدعاة ، فقد ذكر لنا ابن ميسر فى أخبار سنة ٥١٧ هـ أنه
 قد أسند الى داعى الدعاة أبى الفخر صالح « منصب الخطابة بالجامع
 الأزهر » مع خزانة الكتب^(٢) .

(١) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٢ .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٤٦٨ .

أما إدارة المسجد الداخلية من فرش وتنظيف وتجميل فترجع إلى المشرف ومعاونيه من العمال والخدم .

أما ما يتعلق بشئون الدراسة والأساتذة والطلاب والنفقة عليهم فقد رأينا أنه يرجع إلى الخلفاء وإلى ذوى البر من أكابر رجال الدولة ، وقد كان العزيز بالله ووزيره ابن كلّس أول من رتب النفقة الدائمة للقراء والأساتذة بالأزهر ، وحذا حذوها في ذلك الخلفاء والأمراء والكبراء ، في مختلف الدول والعصور .

والظاهر أن هذا النظام في الإشراف على الجامع الأزهر لبث متبعاً في جوهره بعد الدولة الفاطمية ؛ فمثلاً نرى في أواخر القرن الثامن ، في عهد الملك الظاهر برقوق ، ولاية النظر على الجامع الأزهر ، تسند في سنة ٧٨٤ هـ إلى الطواشي بهادر مقدم الماليك السلطانية ؛ وفي أثناء ولايته صدر مرسوم ملكي يقضى بأن من توفى من مجاوري الجامع دون وارث شرعي ، وخلف تركة ، فإنها تؤول إلى زملائه المجاورين ؛ وفي سنة ٨١٨ هـ في عهد السلطان المؤيد ولي نظر الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب ، فكان مما قرره منع المبيت بالجامع الأزهر ، وأخرج المجاورين الذين اعتادوا السكنى فيه^(١) . وبعد ذلك بقليل في زمن السلطان المؤيد

(١) المقرئ في الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

أيضاً ولى نظر الجامع الخواجه شمس الدين محمد الماحورى ، أحد تجار الكارم والجوهر ، وكان من أصدقاء المؤيد ، وذلك بطريق النيابة عمن له النظر على الجامع (ولعله الأمير سودوب أيضاً) فاستعمل القسوة فى تنظيم شئونه الداخلية ، وكان يطوف ومعه عصي لردع المخالفين وقاسى الطلاب منه شدة^(١) . ومن الواضح أن ولاية هؤلاء الكبراء النظر على الجامع كانت تقتصر على الناحية الإدارية مما يتعلق بإصلاحه وتعميره والإنفاق عليه ، وتعيين الموظفين اللازمين لإدارته .

أما شئون العبادات فقد كانت دائماً من اختصاص خطيب الجامع وإمامه . وقد كان يلى خطابة الجامع الأزهر فى العصور المتأخرة كما فى العصور المتقدمة أ كابر القضاة والعلماء ، فنرى بين خطباء الجامع الأزهر فى أواخر القرن السابع الهجرى قاضى القضاة تقى الدين أبا القاسم ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز^(٢) ونرى بينهم فى أوائل القرن التاسع قاضى القضاة الحافظ ابن حجر العسقلانى^(٣) ؛ وكان يوجد دائماً الى جانب منصب الخطيب ، منصب الإمام يشغله أيضاً بعض العلماء الأعلام ، وصاحبه يلى

(١) التبر المسبوك ص ١٩٨ .

(٢) راجع النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) التبر المسبوك ص ٢٣١ .

الخطيب في الأهمية ، ويعاونه في القيام بشئون العبادات . وثمة منصب هام آخر هو منصب « الواعظ » يليه أيضاً جماعة من أكابر العلماء ؛ وقد لبثت هذه المناصب الثلاثة قائمة خلال العصر التركي ، وكان من مشاهير العلماء الذين تولوا إمامة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة الفخر البليسي الضرير أستاذ القراءات ، تولاهما في أواخر القرن التاسع الهجري^(١) والشيخ رضوان المتوفى سنة ١١١٥ هـ^(٢) ومن الذين تولوا منصب الوعظ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، والشيخ شمس الدين الصفدي المقدسي المتوفى في حدود التسعين وتسعمائة^(٣) .

وأما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب الى السلطان ووزرائه . وقد كانت مناصب التدريس في الأزهر وما اليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة ، فلا يعين فيها سوى أكابر الأساتذة والعلماء ، بيد أنه كان للواقفين والواهبين بلا ريب رأى في تعيين أنواع العلوم التي يخصصونها بهباتهم ، وفي

(١) التبر المسبوك ص ٣٢ ، ٧٧ ، ٢٣٩ .

(٢) الجبرتي في عجائب الآثار ج ١ ص ٧٢ .

(٣) راجع الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة (مخطوط

دار الكتب المشار اليه) .

اختيار الأئمة الذين يتولون تدريسها .

وإذا كان من المستطاع أن نتتبع بعض النصوص والإشارات التي تلقى ضوءاً على نظم الإشراف على الجامع الأزهر في العصر الفاطمي وفي عصور السلاطين ، فإننا لا ننكاد نظفر بعد ذلك برواية أو نصوص شافية توضح لنا كيف تطورت هذه النظم إلى نظام المشيخة الحالي . ومن المعروف الذائع أن نظام المشيخة ✶ الحالي إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين ونصف ، وأنه طبق لأول مرة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد عبد الله الخرشى المالكي المتوفى في شهر ذي الحجة سنة ١١٠١ هـ ، (١٦٩٠ م) ، وخلفه في المشيخة الشيخ محمد النشقي المالكي ؛ ولما توفي هذا الشيخ سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٨ م) ، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس فتنة شديدة ، وانقسم المجاورون (الطلاب) إلى فرقتين ، ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوى وترشح الأخرى الشيخ عبد الباقي القليني وكلاهما من المالكية ؛ ووقعت بين الفريقين معارك قتل وجرح فيها كثيرون ، وانتهى الأمر باستقرار الشيخ القليني في المشيخة والتدريس ؛ ثم خلفه بعد وفاته الشيخ محمد شنن ، ثم

الشيخ ابراهيم الفيومي المالكي ؛ ولما نوفي انتقلت المشيخة الى الشافعية لأول مرة ، وتولاها الشيخ عبد الله الشبراوى فى سنة ١١٣٧ هـ (١٧٢٥ م) ولبثت المشيخة فى الشافعية مدى حين^(١) . وما زال هذا النظام — نظام المشيخة ، قائماً بالجامع الأزهر الى يومنا حيث يقوم «شيخ الجامع الأزهر» على رياسته الدينية والادارية . تلك هى الرواية الذائعة عن أصل مشيخة الأزهر ما زالت تتردد منذ عصر الجبرتى وهو أول من دونها فيما يظهر ، حتى يومنا . وقد نقلها المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية دون تعليق^(٢) ، ثم نقلها مؤلفا الرسالتين الوحيدتين اللتين كتبتا فى عصرنا عن تاريخ الأزهر ، فأشار إليها السيد مصطفى بيرم مندوب الحكومة المصرية لدى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى ثغر همبرج فى سبتمبر سنة ١٩٠٢ (١٣٢١ هـ) فى رسالته التى تلاها على المؤتمر المذكور عن تاريخ الأزهر وشئونه^(٣) ، ثم أشار إليها مؤلف كتاب « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر »^(٤) .

(١) راجع كتاب عجائب الآثار للجبرتى ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣١ .

(٣) راجع رسالة السيد مصطفى بيرم المذكورة ص ٦٧ .

(٤) راجع كتاب كنز الجوهر لمؤلفه الشيخ سليمان رصد الحنفى ،

(المطبوع سنة ١٣٢٢ هـ) ص ١٢٣ .

على أنه يلوح لنا أن هذه الرواية الذائعة عن أصل مشيخة الأزهر ، هي في الواقع رواية ينقصها التحقيق والدقة ؛ أجل أن نظام المشيخة أمر مستحدث في رئاسة الجامع الأزهر ، ولكنه يرجع فيما يظهر الى ما قبل القرن الحادى عشر الهجرى ، ولعله يرجع الى أوائل العصر التركى ؛ ومن المحقق أن هذا النظام لم يكن معروفاً قبل الفتح التركى ، فلم يكن للجامع الأزهر « شيخ » من العلماء يتولى رياسته الدينية والادارية ، ولم تكن رئاسة الأزهر من الوظائف الدينية الكبرى فى الدولة المصرية ، بل كانت هذه الوظائف تنحصر حتى أوائل القرن العاشر أعنى الى الفتح التركى فى القضاة الأربعة ، وهم القاضى الشافعى والقاضى الحنفى والقاضى المالكي ، والقاضى الحنبلى والمحتسب ، وكانت الحسبة كالقضاء وظيفة دينية يشغلها عالم دينى كبير ؛ وكان لقب شيخ الإسلام الذى أطلق فيما بعد على شيوخ الجامع الأزهر يطلق فى هذه العصور على كبير القضاة الأربعة وهو دائماً القاضى الشافعى . ونظام القضاة الأربعة قديم يرجع الى عصر الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) حيث عين فى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) قاضياً لكل مذهب من المذاهب الأربعة ؛ وكان يتولى رئاسة القضاء فى مصر منذ الفتح الإسلامى قاض واحد أو قاض للقضاة ، وكان قاضى القضاة أيام

الدولة الفاطمية شيعياً على مذهب الدولة القائمة ؛ فلما تبوأ صلاح الدين ملك مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية قطع الدعوة الشيعية وأعاد الدعوة العباسية وعين لمصر قاضياً من الشافعية ، واستمر الأمر على ذلك زهاء قرن حتى أنشأ الملك الظاهر نظام القضاة الأربعة . ولما افتتح الترك العثمانيون مصر في سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) تركت الأنظمة الداخلية على حالها مدى حين ؛ وفي سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٣ م) أصدر السلطان سليمان أمره بإلغاء نظام القضاة الأربعة وعين لرياسة القضاء في مصر قاضياً تركياً من الحنفية ، وجعل له نواباً من المذاهب الثلاثة الأخرى .

والظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا التعبير في نظام الوظائف الدينية الرئيسية ؛ وقد يرجع التفكير فيه أوقيامه إلى منتصف القرن العاشر الهجري . ذلك أن ولاية الأمر العثمانيين كانوا يعلقون على الوظائف الدينية أهمية خاصة ، وكان الجامع الأزهر يحتل يومئذ بين المساجد والمعاهد المصرية مركز الصدارة ، ويخز دائماً بجمهرة كبيرة من العلماء المصريين وإخوانهم من سائر أنحاء العالم الإسلامي ، هم صفوة الأئمة والأساتذة في ذلك العصر . ومن المعقول أن تكون رياسة الجامع الأزهر ذات أهمية خاصة في نظر ولاية الأمور ؛ وإذا كان الجبرتي لم يذكر لنا شيئاً

للأزهر قبل الشيخ الخرشى المتوفى سنة ١١٠١ هـ فإنه من جهة أخرى لم يقل لنا بصفة قاطعة إنه كان أول من ولي المشيخة ؛ ومع أننا لم نعثر كذلك فيما أتيج لنا من المراجع على نصوص قاطعة تلي ضوءاً واضحاً على أصل مشيخة الأزهر والوقت الذى بدأ فيه تطبيق هذا النظام ، فإنه توجد مع ذلك ثمة قرآن عديدة تدل على أنه يرجع الى ما قبل أواخر القرن الحادى عشر بكثير .

من ذلك ما رواه صاحب كتاب « ذخيرة الأعلام »^(١) فى حديثه عن واقعة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى مع داود باشا الذى تولى ولاية مصر سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) فقد ذكر لنا أنه حدث فى شهر شعبان سنة ٩٥٠ هـ أن الشيخ ابن عبد الحق ، قال يوماً لداود باشا وهو فى موكبه إنه رقيق لا يجوز له أن يتولى الأحكام ، وإن أحكامه باطلة ما لم يحصل على عتقه ثم يقول فى قصيدته التى يروى فيها تفاصيل هذه الواقعة :

لما صغى الباشا للكلام هم بضرب الشيخ بالحسام
قال له الجند فدع جذب الحسام فإن هذا شيخ الإسلام الإمام

(١) هو كتاب « ذخيرة الأعلام » بتواريخ الخلفاء العلماء ، وأمراء مصر الحكام وقضاة قضائهم فى الأحكام » لمؤلفه الشيخ أحمد بن سعد الدين العثمانى العمرى من علماء أوائل القرن الحادى عشر الهجرى وهو مكتوب كله بالنظم (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ) .

وأن الجند انحازوا للشيخ فأرسل الباشا نبأ هذه الواقعة الى السلطان فأنعم عليه بعتقه مع تبليغ الشكر الى الشيخ ، وأن الباشا سعى بعد ذلك الى الشيخ واسترضاه وقبل رجله ، ولم يقبل الشيخ منه مالا ولا هدية ، ولكنه أصبح من ذلك الحين لا يرد للشيخ رأياً ولا شفاعة^(١) .

والمهم في هذه الرواية هو نعت الشيخ ابن عبد الحق « بشيخ الإسلام الإمام » فإننا نعرف أن لقب شيخ الإسلام كان يطلق قبل الفتح العثماني على « قاضي القضاة » الشافعي ؛ وقد كان آخر من لقب بهذا اللقب من المصريين قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن علي المتوفى سنة ٩٤٩ هـ^(٢) فلما ألغى الترك نظام القضاة المصري ، وأقاموا في رئاسة القضاء قاضياً تركيا حسبما قدمنا ، كان هذا اللقب يطلق فيما بعد على أكابر العلماء الذين يصلون الى مرتبة الزعامة العامة أو على شيوخ الجامع الأزهر ، والأغلب أن يطلق على هؤلاء الشيوخ .

فهل كان ابن عبد الحق شيخاً للجامع الأزهر ؟ لقد قرأنا في

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في المخطوط المشار إليه ورقة ١٥٠ و ١٥١ تحت عنوان (واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا) .

(٢) راجع الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة (المخطوط) ج ٢

ترجمته أنه كان واعظاً بالجامع الأزهر ، وقال معاصره الإمام الشعراى عنه ما يأتى : « لم نر أحداً من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله ، كان إذا نزل من فوق الكرسى ، يقتتل الناس عليه ، وكان متفمناً فى العلوم الشرعية وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب المجتهدين ، وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، وكان قد اشتهر فى أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم ، وصاروا يضربون به المثل ، وأذعن له علماء مصر الخاص منهم والعام » ثم قال : « ولما مات اظلمت مصر لوته وانهدم ركن عظيم من الدين » ، وكانت وفاة ابن الحق ، حسبما ذكر صاحب الكواكب السائرة فى أواخر صفر سنة ٩٥٠ هـ (١) .

لسنا نميل الى القطع بأن ابن عبد الحق كان شيخاً للجامع الأزهر ، ولكننا نستطيع القول بأنه يوجد ثمة فى ترجمته وفيما نعته به صاحب الذخيرة ما يحمل على الظن بأنه كانت له صفة الرياسة بالأزهر من مشيخة أو غيرها (٢) .

(١) راجع الكواكب السائرة (المخطوط المشار إليه) ج ٢ ص ١٧٩ ويلاحظ أنه توجد مفارقة بين تاريخ الوفاة فى هذه الترجمة وبين واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا إذ قال صاحب الذخيرة إنها وقعت فى شعبان سنة ٩٥٠ هـ أى بعد تاريخ الوفاة ، فلا بد أنها وقعت قبل ذلك أو تكون الوفاة وقعت بعدها .

(٢) ذهب المغفور له أمين باشا سامى فيما أورده عن واقعة ابن =

ومن ذلك ما رواه فون همّار مؤرخ الدولة العثمانية في تاريخه عما حدث بمصر من الاضطرابات في سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٨ م) في عهد الوالى محمد باشا المعروف بشاه سور زاده (ونقله سامى باشا في كتابه) إذ يقول: « جرد هذا الوالى حملة ضد كاشف البهنسى محمد بك فقتل هذا الأمير وجيء برأسه الى القاهرة . وقد قتل غيره من الأمراء وأدت زيادة الاضطرابات الى أن عقد مجلس كان فيه القاضى وشيخ الجامع الأزهر وغيرهما ، فتقرر فيه الفتوى بضرورة محاربتهم لاستمرار مخالفتهم الأوامر السلطانية ، فجرد عليهم وحاربهم »^(١).

وهنا نجد أنفسنا أمام ذكر صريح « لشيخ الجامع الأزهر » وإن كنا لا نعرف من هو هذا الشيخ ، وذكره يجرى في مناسبة تتقدم التاريخ الذى اصطلح على رد المشيخة اليه بنحو أربعين عاماً .

ومن ذلك ما أورده الجبرتى في ترجمة العلامة ابراهيم بن محمد

= عبد الحق وداود باشا نقلا عن صاحب الذخيرة الى أبعد من ذلك حيث وصف ابن عبد الحق بأنه « شيخ الجامع » أى الجامع الأزهر (راجع كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ١٩) .

(١) راجع كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ٥٩ وكتاب فوق عمار المشار إليه هو كتاب تاريخ الدولة العثمانية Geschichte des Osmanischen Reiches .

ابن شهاب الدين بن خالد البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ فقد ذكر
لنا صراحة أنه كان شيخاً للجامع الأزهر^(١)، ففى كان ذلك ؟
لا ريب أنه تولى المشيخة قبل أن يتولاها الشيخ الخرشي فى أواخر
القرن الحادى عشر ، وقد توفى الشيخ الخرشي كما تقدم فى
سنة ١٠١١ هـ وتولى المشيخة من بعده الشيخ النشترى المتوفى
سنة ١١٢٠ هـ فلا بد أن البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ تولى المشيخة
قبلهما ، أعنى فى أواخر القرن الحادى عشر حوالى سنة ١٠٨٠ الى
سنة ١٠٩٠ هـ .

وانه ليسوغ لنا بعد كل ما تقدم أن نرتاب فى رواية القائلين
بأن مشيخة الأزهر ترجع الى أواخر القرن الحادى عشر فقط ،
وأن الشيخ الخرشي كان أول من تولاها .

والمرجح لدينا أن هذا النظام يرجع الى أواسط القرن العاشر
وأنه يمت كما قدمنا بصلة الى التغييرات التى أحدثها الترك العثمانيون
فى الوظائف الدينية الكبرى ؛ وقد كان لشيخ الجامع الأزهر
وعلمائه نفوذ خاص يستمده ولاية الأمر كلما اقتضت الظروف
والحوادث . وقد بلغ هذا النفوذ فيما بعد مبلغ الرياسة والزعامة فى
أواخر القرن الثالث عشر ولا سيما وقت مقدم الحملة الفرنسية حيث

(١) راجع عجائب الآثار ج ١ ص ٧٠ .

كان لأكابر الشيوخ رأى بارز في معظم الحوادث والشئون الداخلية .
وكانوا يعتبرون ممثلي الأمة في معنى من المعانى ؛ وكان منهم أعضاء
الديوان الذى ألفه الفرنسيون لحكم مدينة القاهرة ، وكان لهم
نفوذ يذكروا في سير الحوادث في ذلك الحين .

وإذا كنا لم نوفق الى العثور على أسماء العلماء الذين تولوا
مشيخة الأزهر قبل أواخر القرن الحادى عشر فذلك لأن الوقائع
والمراجع تنقصنا ؛ ومن المعروف أن العصر التركى هو أكثر العصور
في تاريخ مصر الإسلامية غموضاً واضطراباً وأقلها وثائق ومراجع ،
لما حدث فيه من اضطراب للحركة الأدبية ، وفتور المهتم عن
التأليف والتدوين ، وانصراف المؤرخين عن تناول الشئون العامة
والأمور النافعة الى ملق الحكام والأكابر وتدوين سيرهم الشخصية .
هذه فروض نعتقد أنها جديرة بالتأمل ، وقد نوفق أو يوفق
غيرنا يوماً الى نصوص أو وثائق جديدة تلقى ضوءاً على هذه
الفروض . وعندئذ يمكن أن تقال كلمة التاريخ واضحة في أصل
مشيخة الجامع الأزهر .

الفصل العاشر

عهد التطور والإصلاح

نهوض الحركة الفكرية . عوامل التطور الجديد . النهضة الثقافية
في عهد محمد علي وطابعها الجديد . عزلة الأزهر وقصوره عن مجارة
النهضة . بواذر اليقظة والإصلاح . أول قانون نظامي للأزهر .
قانون كساوى العلماء . قانون سنة ١٩١٢ . إنشاء الجامعة الأزهرية
وفقاً لقانونى سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٦ . تعليقات وتأملات

كانت حوادث الحملة الفرنسية وما ترتب عليها من تطورات
داخلية وخارجية ، إيذاناً بتحرير مصر من نير الحكم التركى ،
فأخذت مصر تستقبل عصرأ جديداً ، وأخذت الحركة الفكرية
تستيقظ شيئاً فشيئاً من سباتها العميق . بيد أنها اتجهت عندئذ
وجهة جديدة . وقد كانت عوامل هذا التطور الفكرى تعمل عملها
منذ حين فى ظل الثورة السياسية والاجتماعية ، التى شملت أوضاع
الحياة القديمة كلها . وفى هذه الفترة القصيرة التى قضتها الحملة الفرنسية
بمصر ، استطاع بعض العلماء والمفكرين المصريين أن يشهدوا
عن قرب مظاهر حضارة جديدة متقدمة ، وأن يقفوا على طرف
من خواص العقلية الغربية ومناهجها فى التفكير والعمل . وكان

نشاط البعثة العلمية التي قدمت في ركب الغزاة ، وجهود العلماء الذين تتألف منهم في مختلف ميادين الدرس والبحث ، من أعظم المظاهر المادية التي أحدثت أثرها في هذا التطور الذي لم تنضج عوامله وتوضح وجهته إلا بعد ذلك بمدة طويلة . ويعرب لنا الجبرتي مؤرخ العصر — وهو من علماء الأزهر — في أكثر من موضع من تاريخه عن شديد إعجابه بما جملة الفرنسيون الى مصر من ضروب الثقافة الجديدة ، وغريب الفنون والمخترعات ، ويصف دار كتبهم التي أنشأوها في الناصرة ، وما رأى فيها من الكتب النادرة والصور الممتعة ، والتصانيف الإسلامية المترجمة . ثم يصف لنا دار الكيمياء وما شاهد فيها من غريب التجارب والاختراعات ، ودار التصوير وما فيها من صور متقنة الكبار العلماء ورجالات مصر يومئذ ، وصور الطبيعة والحيوان والنبات ، وغير ذلك من المناظر الجذابة التي لم يشهداها العلماء المصريون من قبل .

ولم يكن إعجاب مؤرخ العصر بما شهد من مظاهر الثقافة الحديثة إلا صدى لنوع من التقدير العام لهذه الناحية من النشاط الفكري . وربما كان هذا التقدير أول ظاهرة نفسية تدل على الاتجاه الجديد الذي كان يتطلع إليه التفكير المصري يومئذ . وكان من أثر ذلك الركود الطويل الذي أصاب الحركة العقلية

خلال العصر التركي وما ترتب عليه من ركود الدراسة بالأزهر ،
وتصدع هيئته وضعف موارده ، أن خبت جذوة ذلك الشغف
القديم بالثقافة الأزهرية ، خصوصاً بعد أن فقدت كثيراً من
مزاياها الأدبية والمادية القديمة . ومع أن شببية العصر كانت تلجأ
إلى الأزهر باعتباره مورد الثقافة الوحيد يومئذ ، فإنها كانت تتطلع
إلى نوع آخر من الثقافة يكون أكثر ملائمة لروح الجديد الذي
سرى يومئذ إلى المجتمع المصري .

ولم تفت هذه الظاهرة محمد علي الذي آل إليه تراث مصر ،
وأخذ يوجه مصايرها السياسية والاجتماعية والثقافية ، إلى نواحيها
الجديدة بذكاء وبراعة ؛ وقد وضع هذا المصلح العظيم أول دعامة في
صرح الثقافة المصرية الحديثة ، وآثر أن يتجه في تعليم الجيل الجديد
وجهة جديدة ، لأنه أدرك بذكائه وحسن تقديره أن الأساليب
الأزهرية القديمة في التعليم والتثقيف لم تعد تتفق مع روح العصر
ولا مع المثل التي تطمح إليها دولة فتية جديدة . ولم تقف همته عند
إنشاء المدارس المختلفة الابتدائية والتجهيزية والخصوصية كمدارس
الطب والهندسة والألسن والفنون والصنائع (العمليات) —
ولكنه عني أيضاً بإرسال الطلبة المصريين إلى أوروبا ليتلقوا ثقافتها
وعلمها الرفيع ، ولينشئوا الثقافة القومية فيما بعد على أسس محدثة .

وأرسلت منذ سنة ١٨٢٦ ، الى فرنسا وانكرا والنمسا وغيرها عشر بعثات بلغ عدد طلبتها أكثر من ثلاثمائة ، وبلغ ما أنفق عليها زهاء نصف مليون جنيه . وتلقى هؤلاء الطلبة المبعوثون الدراسات العليا في الإدارة والحقوق والعلوم السياسية ، واللغات والهندسة والطب والكيمياء والرياضيات ومختلف الفنون العسكرية والعملية ؛ ونبغ منهم عدد كبير في مختلف العلوم التي تلقوها . وكانت صفحة باهرة في تاريخ مصر الحديث تشهد لكتابها المصلح العظيم بعقريه مستنيرة ، وكانت جهود هذه الجهرة من الطلاب والعلماء النوابغ أعظم دعامة فامت عليها ثقافتنا الحديثة .

وهكذا نشأت بمصر طبقة جديدة من المفكرين والعلماء والأدباء الذين أخذوا بقسط بارز من العلوم الحديثة . وأخذت الحياة الفكرية والاجتماعية المصرية بتأثير الاحتكاك المستمر بأوربا تتطور نحو الاتجاه الجديد بسرعة . ولم يكن الأزهر بعيداً كل البعد عن هذه الحركة الثقافية العظيمة ، فقد كان بين طلاب هذه البعثات عدد من طلاب الأزهر ، وكان منهم نوابغ أفذاذ مثل رفاة بك رافع الطهطاوى إمام البعثة الأولى وصاحب الفضل في إنشاء مدرسة الألسن الشهيرة ، وإبراهيم بك النبراوى أحد نوابغ البعثة الطبية ، وأحمد حسن الرشيدى بك من أكابر خريجي مدرسة الطب

والبعثات ، وغيرهم ، ممن تلقوا دراستهم الأولى بالأزهر ؛ وكذلك كان لأبناء الأزهر أعظم فضل في إخراج الموسوعات والمصنفات العربية والإسلامية التي عكفت على إصدارها مطبعة بولاق منذ منتصف القرن الماضي ، والتي كان إخراجها من أعظم العوامل في إحياء الأدب العربي القديم^(١) .

ولكن الأزهر بقي مع ذلك بمعزل عن هذه المؤثرات والاتجاهات الفكرية الجديدة ، قانعا بدراساته ومناهجه القديمة ، وكان هذا القصور عن فهم الحركة الثقافية الجديدة ومجاراتها ، عاملا في انصراف الأذهان الطموح عن وروده . وقد لبث الأزهر مع ذلك موئل الثقافة الشعبية العامة ، واستطاع أن يحتفظ ببقية من تلك الجذوة القديمة التي طالما سطعت في عصوره الماضية ، واستطاع بالأخص أن يحتفظ بامتيازه القديم كمرکز لعلوم الدين واللغة .

وفي بدايه عصر اسماعيل كانت العلوم الآتية تدرس بالأزهر ، وذلك حسبا ورد في تقرير رسمي لمشيخة الأزهر ، وضعته بناء على طلب الحكومة لتبعث به الى لجنة معرض باريس ، وذلك في سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٤ م) :

(١) كان في مقدمة الأساتذة الذين اضطلعوا بهذه المهمة الشيخ نمر المحوريني والشيخ ابراهيم الدسوقي كبير مصححي المطبعة الأميرية في منتصف القرن الماضي

الفقه . الأصول . التفسير . الحديث . التوحيد . النجوى
والصرف . المعانى والبيان والبدیع . متن اللغة . العروض والقافية .
الحكمة الفلسفية . التصوف . المنطق . الحساب . الجبر والمقابلة .
الفلك والهيئة .

وزادت المشيخة على ذلك أن فضلا عن هذه العلوم المتداولة
تقرأ بالأزهر بعض علوم أخرى كالمهندسة والتاريخ والموسيقى وغيرها
لمن لهم اقتدار على دراستها ، بيد أنه لا يشتغل بدراستها سوى القليل .
وفي عصر اسماعيل تفتحت ثمار النهضة الحديثة وأينعت ،
وكان الأزهر قد بدأ يفيق من سباته الطويل ، ويبرز شيئاً فشيئاً
من غمر الماضي ، ويتطلع بدوره الى تفهم الروح الجديد ؛ وكانت
هذه اليقظة بطيئة ولكن محقة . ولما قدم المصاحح الإسلامى
الكبير السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر فى سنة ١٨٧١ ، وأخذ
يعقد حلقاته المشهورة ويشرح فيها علوم الكلام والفقه والفلسفة
والمنطق وغيرها بطريقة عصرية مبتكرة ، التف حوله عدة من
نوابغ الطلاب والشيوخ الأزهريين ، فكانت هذه الحلقات حادثاً
فكرياً واجتماعياً عظيماً ، وكانت عاملاً فى تغذية الروح الجديد
الذى سرى الى الحركة الفكرية الإسلامية .

وفي هذه الفترة بالذات ظهرت الآثار الأولى لهذا التطور فى

الأزهر ، وأصاب الأزهر أول قسط من الإصلاح ، وصدر أول قانون نظامي للأزهر في سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢ م) وشيخ الأزهر يومئذ الشيخ محمد العباسي المهدي . ونظم هذا القانون طريقة الحصول على الشهادة العالمية ، وبين موادها ورتبها على ثلاث درجات (أولى وثانية وثالثة) وأن تصدر بها براءة من ولى الأمر ، وقرر أن تكون المواد التي يمتحن فيها الطلاب هي الآتية :

الأصول . الفقه . التوحيد . الحديث . التفسير . النحو . الصرف . المعاني . البيان . البديع . المنطق .

ولم يكن للأزهر قبل صدور هذا القانون شهادات دراسية معينة تمنح للطلاب اللهم إلا «الإجازة» التقليدية التي كان يمنحها أكابر العلماء للطلاب المتقدمين إليهم ، أو يمنحها الأستاذ لتلميذه في مادة معينة أو كتاب معين متى أتم الطالب دراسة هذه المادة أو حفظ هذا الكتاب وأصبح قادراً على تدريس ما حفظ بدوره الى الطلاب ، وتمنح أيضاً للإفتاء لطلاب الفقه متى أتموا الدراسة لأصول مذهب معين ؛ وقد لبثت هذه الإجازة بالأزهر مدى قرون عنوان الإجازة والتفوق ، واستمر تداولها حتى العصر الأخير^(١) .

(١) راجع في تعريف هذه الإجازة : صبيح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ وما بعدها حيث يورد أيضاً صوراً من نصوص هذه الإجازات في عصر المؤلف .

وكان هذا القانون أول خطوة عملية في تنظيم الحياة الدراسية بالجامع الأزهر . بيد أنه لم يحقق كثيراً من الإصلاح المنشود . وفي أوائل عهد عباس الثاني ظهرت بالأزهر حركة إصلاحية قوامها وروحها المغفور له الشيخ محمد عبده . ولم تلبث أن أثمرت هذه الحركة ثمرتها وصدر أمر خديوى بتشكيل لجنة إدارية دائمة تعنى بالنظر في شئون التدريس ونظام الأروقة والمرتبات ودرجات العلماء وغيرها من مسائل الأزهر وشئونه . وقامت اللجنة بمهمتها بإرشاد الشيخ محمد عبده ، ووضعت القواعد والنظم المطلوبة ؛ وصدر في يناير سنة ١٨٩٦ قانون كساوى العلماء ودرجاتها ، وجعلت هذه الكساوى مائة منها خمس عشرة من الدرجة الأولى وخمس وثلاثون من الدرجة الثانية وخمسون من الدرجة الثالثة ؛ وصدرت لأئمة المرتبات في يونيو من نفس العام ، وكان مرتب الكساوى يتراوح بين ١٢ و ٣٠ جنيهاً في الشهر ؛ ونظمت شئون الأساتذة والطلبة طبقاً لأصول وقواعد جديدة . وأضيفت الى مواد الدراسة طائفة من المواد الجديدة هذا ببيانها :

الأخلاق . مصطلح الحديث . الحساب . الجبر . العروض والقافية . وجعل التاريخ الإسلامى ، والإنشاء ومهن اللغة ، ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان ، مواد يفضل المشتغل بها على غيره . وجعل

لمجلس الإدارة الحق في تعديل مواد الدراسة طبقاً لما يراه . وهذه جميعاً من محتويات قانون الأزهر الصادر في سنة ١٨٩٦ .

وفي سنة ١٩١١ على أثر اضطرابات الأزهر المعروفة ، صدر قانون جديد للأزهر ينظم الدراسة على أسس جديدة ، وبمقتضاه قسمت الدراسة الى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة ، وأنشئت هيئة للإشراف على شئون الأزهر تحت رئاسة شيخ الجامع تسمى « مجلس الأزهر الأعلى » كما حدد اختصاص الشيخ ، وأنشئت هيئة كبار العلماء وفقاً لنظام خاص ، وأنشئت معاهد دينية جديدة في بعض عواصم المديرية . وأضاف هذا القانون الى مواد الدراسة مواد جديدة هي التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادئ الطبيعة والكيمياء وتوالت على هذا القانون تعديلات عديدة كان آخرها التعديل الذي يتضمنه القانون الصادر في سنة ١٩٣٠ . وقد كان هذا القانون في الواقع خطوة حاسمة في الفضاء على نظم الدراسة القديمة بالأزهر وإنشاء ما يسمى اليوم بالجامعة الأزهرية . وقسم التعليم العالي بالأزهر وفقاً لهذا القانون الى ثلاث كليات : كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية ؛ وأنشئ نظام التخصص في المادة والتخصص في المهنة .

وفي سنة ١٩٣٦ صدر قانون جديد للأزهر جعلت فيه مراحل

التعليم بالأزهر أربع ، هى مرحلة التعليم الابتدائى ومدته أربع سنوات ، والثانوى ومدته خمس سنوات ، والعالى (وهو الدراسة فى إحدى الكليات) ومدته أربع سنوات ؛ وأما المرحلة الرابعة والنهائية فتتقسم إلى قسمين : الأول أقسام الإجازات لأعداد الطلبة للحصول على الشهادة العالمية ، وهى ثلاثة إجازة القضاء الشرعى وإجازة الدعوة والإرشاد وإجازة التدريس ، ومدة كل منها سنتان . والثانى أقسام التخصص فى المادة لإعداد الطلبة للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ وهى ستة أقسام : الفقه ، والأصول ، والتوحيد والفلسفة ، وعلوم القرآن والحديث ، والتاريخ الإسلامى ، والنحو والبلاغة . ومدة كل قسم لا تقل عن خمس سنوات ولا تزيد عن سبع . وبين القانون المواد التى تدرس فى كل مرحلة وشروط الحصول على الشهادة العالمية ، وعلى درجة أستاذ . وأطلق اسم الجامع الأزهر فى هذا القانون على الكليات الأزهرية وأقسام الإجازات والتخصص التابعة لها ؛ وألحقت به معاهد التعليم الابتدائى والثانوى بالقاهرة والاسكندرية وطنطا والزقازيق وأسيوط ودسوق ودمياط وشبين الكوم وهى المسماة بالمعاهد الدينية ، وكذلك الأقسام العامة المنشأة فى الجهات المتقدمة وفى المنيا وسوهاج وقنا . ويقوم دستور الأزهر ونظمه الحالية على هذين القانونين

أعنى قانون سنة ١٩٣٠ وقانون ١٩٣٦ .

ولاريب أنه انقلاب خطير حاسم ذلك الذى أصاب الجامع الأزهر فى عصرنا ، وحول مجرى حياته القديمة ، وأسبغ عليها طابعاً جديداً ، يحمل فى نظمه ومظاهره الخارجية سمة المعاهد الدراسية الحديثة .

وقد اختتمت حياة المعهد الألفى القديم ، ولم يبق من الجامع الأزهر سوى ذلك الصرح الجليل الذى مازال يحتل البقعة التى اختارها جوهر لإنشائه يبدو بعمده وأروقته المنيفة كعلم جميل انقضى ، بعد ان غمر الأجيال المتعاقبة بروعته عصوراً طويلة ، واختفت تلك الحلقات العلمية الجليلة التى لبثت زهاء ألف عام سراجاً منيراً ، ينفث أشعته فى مصر والعالم الإسلامى ، ولم تبق منها سوى ذكريات دارسة .

ولم يك ثمة شك فى أن الأزهر كان بحاجة شديدة الى الإصلاح والتجديد ، ومجاعة نظم التعليم والتثقيف الحديثة على الأ يحنى ذلك الإصلاح والتجديد على رسالته الأساسية فى السهر على مصاير العلوم الإسلامية والآداب العربية . ولكن هل يمكن أن يقال أن هذه المحاولات التى بدأت فى عصر اسماعيل لإصلاح الأزهر ،

وانتهت في عصرنا بالقضاء على المعهد القديم وكل مناهجه ورسومه
وتقاليده ، قد حققت الغاية المنشودة في تجديده وإحيائه ، وحفظت
عليه رسالته التاريخية كاملة غير منقوصة ؟

لقد حمل تيار التطور الأزهر الى مصير غامض . وقد اضطرر
الأزهر بروح الإصلاح الجديد ، ولكنه لم يظفر منه فيما نخشى إلا
بالمظاهر العرضية ؛ وقد خلع الأزهر رداءه العلمى القديم ، وبدا لنا
في شكل جامعة وكليات محدثة ، ولكن هذا التغيير لم يتناول
سوى المظاهر الشكلية . ولم يظفر الأزهر بعد ببديل يعوضه عما
كان يتمتع به من المزايا الدراسية القديمة ؛ ولم يعن زعماء
الإصلاح الأزهرى بالأخص بتحديد مهمة الأزهر الجديدة تحديداً
واضحاً ؛ وقد أصبح الأزهر يجمع بين مزيج غير واضح من
الأساليب القديمة وبعض مظاهر الثقافة الحديثة ، ولم يصل بعد الى
طريق الاستقرار والوضوح .

أجل ، نظمت الدراسة الأزهرية في مراحل ومعاهد جديدة ،
وأنشئت كليات وإجازات تخصص ، وأعدت لطلبة أبنية صحية
حديثه للدراسة والسكنى ، ووضع مشروع المدينة الأزهرية ، على
نمط « المدينة الجامعية »^(١) الأوروبية ، وأدخلت في مناهج التعليم

Cité Universitaire (١)

طائفة صالحة من المواد الحديثة مثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة
والرسم وتاريخ التشريع والنظام الدستوري ومبادئ الاقتصاد ،
ونظم التربية والأخلاق وعلم النفس ، واللغات الأجنبية كالإنكليزية
والفرنسية وبعض اللغات الشرقية ، وأرسل بعض طلاب « الجامعة
الأزهرية » في بعثات دراسية إلى أوروبا . ولكننا لا نستطيع
بالرغم من هذه المظاهر الجذابة كلها ، أن نقول إن « الجامعة
الأزهرية » قد حققت أمنية الأزهر كاملة ، وأنها أصلح منه لحل
رسالته التاريخية .

إن ما كسبه الأزهر من هذا الانقلاب الحاسم في مصيره
لا يزال رهن الزمن والمستقبل . ومن سبق القول أن نتحدث عن
مزايا نظام لم يتمخض بعد عن آثاره ، ولكننا نستطيع بالعكس
أن نقول إن الأزهر الحديث بالرغم من جميع الجهود التي بذلت
لإصلاحه منذ نصف قرن ، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة
أزهرية ، قد فقد كثيراً من المزايا العلمية والجامعية الحقيقية التي
اقتترنت بتاريخه القديم .

فقد اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين في علوم الدين واللغة
عمن حفلت بهم أواخر القرن الماضي ، وكانوا بقية أخيرة لذلك
الجيل القديم ، من علماء الأزهر الذين وهبوا حياتهم للدرس .

وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضي يأخذ بنصيب بارز في تكوين الزعامة الفكرية والقومية ؛ وكان ظهور رجال مثل محمد عبده وسعد زغلول من بين صفوف طلبته ، أسطع دليل على أن هذا العهد الثالث لم يفقد خلال عصور الانحلال والتأخير كل حيويته الفكرية ؛ ولكن هذه الظاهرة تكاد تختفي اليوم .

وقد فقد الأزهر كثيراً من خاصته الروحية التي كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفاني في التحصيل والدرس ، والتعلق بشرف العلم ، والإعراض عن مغريات الدنيا ، وإيثار التقشف والزهد ، على الحياة الناعمة ، وتحول شيوخ الأزهر في ظل النظم الجديدة شيئاً فشيئاً الى نوع من أرستقراطية رجال الدين تمتاز ببسطة في الرزق والجاه ، وتحول طلابه الى ميدان الصراع المادي في سبيل العيش ، والسعى وراء الوظائف ومنازعة أضرابهم من المعاهد الأخرى في الفوز بها . وقد أحدثت هذه الأرستقراطية الاجتماعية ، وهذه النزعة في الإقبال على الدنيا أثراً لا يحمد في جو الأزهر العلمي ، وذهبت بكثير من خواصه الروحية القديمة .

ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث بالرغم من اتسامة بسمة الجامعات العصرية ، لا يزال بعيداً عن أن يجارى روح العصر فعلاً في تنظيم مناهجه وأساليبه العلمية . فهو لا يزال يعيش على تراث

الأزهر القديم ، ولا يزال مرجع الدراسة بالكلية الأزهرية الحديثة في علوم الدين واللغة طائفة من الكتب القديمة التي يعرفها الأزهر منذ العصور الوسطى ؛ فالشاطبية ، وجمع الجوامع ، والسنوسية ، ومختصر ابن الحاجب ، وألفية ابن مالك ، وشرحها لابن عقيل ، ومختصر السعد وحواشيه ، وكتب ابن حجر ، والبلقيني ، والسيوطي ، والبرماوي ، والزيلعي وغيرها ، تدرس في الكليات للطلبة النظاميين ، وبعض هذه الكتب يرجع الى القرن السادس الهجري كالشاطبية ، والسابع مثل مختصر ابن الحاجب ، والألفية ابن مالك ، والثامن كشرح ابن عقيل ومختصر السعد ؛ ومع أن هذه المصنفات القديمة لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية فهي لا تصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتيقة لعقلية الطالب الحديث . ولم يزود طلبة الجامعة الأزهرية حتى اليوم من الكتب أو المذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جدا في بعض المواد المستحدثة ، مثل التاريخ الإسلامي ، والسيرة النبوية ، وتاريخ التشريع ، وتفسير بعض آيات الأحكام ، وكذا بعض كتب النحو والصرف ؛ وسيمضي وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة الأزهرية أن يضعوا من الشروح والتأليف المنظمة الحديثة ما يسد حاجة الطلاب .

وقد فقد الأزهر كثيراً من مزايا الدراسة الجامعية الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة التي لبثت قروناً تزين أروقته وساحاته ، ففقدت عليها النظام الجديد ، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة ، تتمثل في إلقاء بعض الدروس العادية في علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر وبعض المساجد الأخرى التي توجد بها المعاهد الدينية ، وتقرأ فيها الكتب القديمة ، ويشهد لها الطلاب غير النظاميين ولا سيما الغرباء وبعض أفراد الجمهور ، وتعرف في ظل النظام الجديد بالأقسام العامة .

والواقع أن هذه الحلقات القديمة لم تكن سوى المدرّج الجامعي الحديث ، وقد كانت تتفوق بلا ريب في عناصرها الجامعية على فصول الكليات الأزهرية ، وكان خيراً لو أصاحت ونظمت على غرار الدراسات الجامعية العليا التي يتولاها أعلام الأساتذة والإخصائيين ، وقد كان في استبقائها على هذا النحو تخليداً لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية التي كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر ومحاسن الأزهر ، وكانت في كثير من الأحيان مجمع الصفوة من الأساتذة والمستمعين .

لقد اضطرم الصراع مدى حين بين الثقافتين القديمة والحديثة وقد أحرز الجديد نصره النهائي على تراث القديم وأساليبه ،

وتبوءات الثقافة المحدثه في مصر المكان الأول ، وهي تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح الى الحياة العصرية بكل أوتى من المزايا المعنوية والمادية . على أن ذلك لا يعنى أن مهمة الأزهر قد انتهت ، أو أنها يجب أن تنتهى ؛ ذلك أننا نعتقد بالعكس أن للأزهر مهمة جليلة وأنه يستطيع الاضطلاع بها إذا وفق الى اتخاذ الوسائل والأساليب الصالحة لتأديتها . تلك المهمة هي العمل على تدعيم رسالة الإسلام ، ورسالة اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، بأساليب مستنيرة ؛ وقد كان الأزهر معقلا من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى ، والعصر التركي ؛ وفي وسعه أن يكون معقلا اليوم ؛ بيد أنه يجب أن ينزل الى ميدان الحياة الجديدة بقوة فتيمة ، وروح جديدة تحررت نهائيا من غمر الماضي وأصفاده الفكرية ؛ وعليه قبل كل شيء أن يفهم حدود مهمته ، وأن يكرس جهوده لتأديتها في هذه الحدود . ومن الخطأ أن نتصور هذا الصراع بين القديم والجديد ، نضالا يصطبغ بلون الخصومة ، وإنما هو تنافس ثقافى ومعنوى بين أساليب التفكير القديمة والمحدثه . وفي اعتقادنا أن الأزهر الذى ننشده ضرورى لصرح ثقافتنا الجديدة ضرورة الجامعة المصرية ذاتها ،

وأنه برسالتة ومهمته الخاصة يتم رسالة الثقافة القومية العامة .

هذه خواطر أثارها في النفس تاريخ الأزهر وذكرياته ، وهي
خواطر تجول بنفس كل صديق للأزهر ، معجب بتاريخه الحافل ،
عارف بخدماته الجليلة لعلوم الدين واللغة . وما زال الأزهر الألفي
بالرغم من اختفاء مظاهره الدراسية القديمة فكرة خالدة ، تثير دائماً
بروعتها ونبلاها وطرافتها ، والدور العظيم الذي أدته في تاريخ العلوم
الإسلامية ، والآداب العربية ، أيما إكبار وإجلال .

وثائق وإحصاءات

١ — (١) وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر

ودار الحكمة

« وهو نص سجل الوقف الذى وقف بمقتضاه الحاكم بأمر الله بعض أملاكه بمصر والقاهرة على الجامع الأزهر ودار الحكمة وبعض المساجد الأخرى ، وهو منقول عن كتاب الخطط للمقرئى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩ — ٥١ . »

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقّة والرحبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب بمحضر رجل متكلم أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والخصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب وأنها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع بالقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بناءهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ

هذا الكتاب ، منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم ، ومنها ما يخص الجامع بالقس على شرائط يجرى ذكرها . فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذى كله بفسطاط مصر ؛ ومن ذلك ما تصدق به على جامع القس جميع أربعة الخوانيت والمنازل التى علوها والمخزين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الخوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الخوانيت بحصص القيسى ، بحدود ذلك كله وأرضه وبناءه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفعاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بته ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تملكها ، باقية على شروطها ، جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض

والسماوات ، على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي إليه ولايتها
ويرجع إليه امرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من
إشهارها عند ذوى الرغبة في إجارة أمثالها . فيبتدأ من ذلك بعمارة
ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين وممرته من غير إجحاف بما
حبس ذلك عليه ؛ وما فضل كان مقسوما على ستين سهما ، فمن ذلك
للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الإيثار الخمس
والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارته
ومصلحته وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة
وستون دينارا ونصف دينار وثمان دينار ، ومن ذلك للخطيب بهذا
الجامع أربعة وثمانون دينارا ، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية
تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك ، ومن
ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع
في كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن
ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر دينارا ونصف وربع
دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندی للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع
مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر دينارا ، ومن
ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفل سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس
هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمان الخيط وأجرة الخياطة
خمسة دنانير ، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين
رطلا بالرطل الفلفل دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن

قنطار واحد بالفلقلى نصف دينار ، ومن ذلك لثمن أردنين ملحاً
 للقناديل ربع دينار ، ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير
 والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً ؛ ومن ذلك
 لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء آدم نصف دينار ، ومن
 ذلك لثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن
 عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى
 مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك
 لثمن أزيار نغار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجره حملها
 ثلاثة دنانير ؛ ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة
 ألف رطل ومائتا رطل مع أجره الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ؛
 ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة ، وأربعة قومة
 وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ،
 منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران وثلاث دينار فى كل شهر من
 شهور السنة ، والمؤذنون والقومة ولكل رجل منهم ديناران فى كل
 شهر ، ومن ذلك لمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون
 ديناراً ؛ ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه
 من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى
 هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة
 ستون ديناً ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبين ونصف حمل جارية
 لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلاث

دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضاة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً ... » .

والى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر وأخذ فى ذكر جامع راشدة ، ودار العلم وجامع المقس ، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلا من الفضة . فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها جامع راشده تنور واثنا عشر قنديلا ؛ وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد الى مكان جرت عادتها أن تحفظ فيه . وشرط بعد ذلك فى الوقف شروط كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

٢ — الإجازات العلمية

أورد لنا القلقشندى فى صبح الأعشى صور طائفة من الإجازات التى كان يصدرها أكابر العلماء لتلاميذهم أو لمن يتقدم إليهم من الطلاب ، كإجازة التدريس والفتيا والرواية وغيرها (ج ١٤ ص ٣٢٢ وما بعدها) ، وتصدر هذه الإجازة بعد اختبار الطالب فيما طلب الإجازة فيه .

(١) وهذه صيغة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى ، أصدرها العلامة سراج الدين أبو حفص عمر الشهير بابن الملقن لأبى العباس القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى سنة ٧٧٨ هـ ، وكتبها القاضى تاج الدين بن غنوم موقع الحكم

بالاسكندرية ، وذلك بعد البسملة والديباجة :

« ولما كان فلان — أدام الله تسديده وتوفيقه ، ويسر الى الخيرات طريقه — ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى والى نيل السعادة — إنشاء الله — يفضى ، استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا ، العبد الفقير الى الله تعالى ، الشيخ الإمام ، العلامة ، الحبر الفهامة ، فريد دهره ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوجد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ، سراج الدين مفتى الإسلام والمسلمين ، أبو حفص عمر ابن الخ » .

« وأذن وأجاز فيه لفلان المسمى فيه ، أدام الله معاليه ، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الربانى ، أبى عبد الله محمد بن أدريس المطلبى الشافعى ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مقابلة ومشواه ؛ وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبه ، حيث حل وأقام ، كيف شاء متى شاء وأين شاء ، وأن يفنى من قصد استفاءه خطأ ولفظا ، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه ، لعلمه بديانته وأمانته ، ومعرفته ودرايته ، وأهليته لذلك وكفايته وكتب فى تاريخ كذا » .

(٢) وهذه صيغة إجازة أصدرها الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدايم الى ولد أبى العباس المذكور المسمى نجم الدين أبى الفتح ،

متضمنه اتقانه لحفظ كتاب « المنهاج » في الفقه للنووي ، وذلك سنة ٨١٣ هـ جاء فيها بعد الديباجة : « وبعد فقد عرض على الفقيه الفاضل ، نجل الأفاضل ، وسليل الأماثل ، ذو الهمة العليا ، والفطنة الذكية ، والفطرة الزكية ، نجم الدين أبو عبد الله محمد بن فلان ، نفع الله به كما نفع بوالده ، وجمع له بين طارف العلم وتالده ، — مواضع متعددة من « المنهاج » في فقه الإمام الشافعي المطلبى رضى الله عنه وعنايه ، تأليف ولي الله ابن زكريا بن شرف بن مري النووي ، سقى الله تعالى ثراه ، وجعل الجنة مأواه ، دل حفظه لها على حفظ الكتاب ، كما فتح الله له مناهج الخير دقه وجله ، وكان العرض في يوم كذا » .
(٣) وكتب العلامة الشيخ عز الدين بن جماعة في بعض

الإجازات ما صورته :

« كذلك عرض على المذكور باطنها عرضاً حسناً ، محرراً مهذباً مجاداً متقناً ، عرض من أتقن حفظه ، وزين بحسن الأداء لفظه ، وأجزل لى من عين العناية حظه ، مرفيه مرور المملاج الوساع في فسيح ذى السباع . وقد دلنى ذلك منه ، نفعه الله تعالى ونفع به ، فوصل أسباب الخير بسببه ، على علو همته ، ووفور أريحيته ، وتوقد فكرته ، واتقاد فطنته . . . وقد أذنت له أن يروى عنى الكتاب المذكور ، وجميع ما يجوز لى وعنى روايته ، من مصنفاتى وغيرها من منظوم ومنثور ، ومنقول ومعقول ومأثور ، بشرطه المعتبر ، عند أهل الأثر . وكتب فلان فى تاريخ كذا . . . »

ب — إحصاءات عامة عن الأزهر

١ — ميزانية الأزهر

(١) في سنة ١٨٩٢ ، ورد بالتقرير الرسمي الذي سبق ذكره أن ميزانية الأزهر بلغت ٤٣٧٨ جنيهاً انكليزيا لليرادات ؛ وكان يوزع كل يوم عشرة آلاف رغيف من الخبز .

(٢) في سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ بلغت ميزانية الأزهر ١٤٠٠١ جنيهاً انكليزيا لليرادات ؛ من ذلك ٦٦١١ جنيهاً من نظارة المالية و ٥٧٥٧ جنيهاً من ديوان الأوقاف ، و ١٦٣٣ جنيهاً من أوقاف الأروقة ، وكان يوزع كل يوم ثلاثة عشر ألف رغيف من الخبز .
(عن مقال الدكتور فولرز عن الأزهر بدائرة المعارف الاسلامية)

(٣) في سنة ١٩٠٧ بلغت ميزانية الأزهر والمعاهد الدينية ١٩٨٠٣ جنيهاً انكليزيا .

(٤) في سنة ١٩١٠ — ١٩١١ بلغت هذه الميزانية ٤٩٧٢٠ جنيهاً انكليزيا ، منها ٥٨٨٤ من ديوان الأوقاف ، والباقي من نظارة المالية وأوقاف الأروقة .

(٥) في سنة ١٩٢٦ بلغت ميزانية الأزهر والمعاهد الدينية حوالى ٢٠٩٠٠٠ جنيهاً مصرياً .

(عن الوقائع المصرية)

(٦) في سنة ١٩٣٣ بلغت الميزانية ٢٤٨,٢٢٨ جنيهاً مصرياً .

(٧) في سنة ١٩٣٧ بلغت ميزانية الأزهر والمعاهد الدينية ٣٢٧,٨٤٦ جنيهاً مصرياً .

- (٨) وبلغت هذه الميزانية في سنة ١٩٣٨ — ٣٣٥٦٥٠ جنيهاً
- (٩) وبلغت في سنة ١٩٤٠ — ٣٤٦٤٠٠ جنيهاً .
- (١٠) وبلغت ميزانية الأزهر والمعاهد الدينية في السنة المالية الحالية (١٩٤١ — ٤٢): ٣٤٦٦٤٠٠ جنيهاً للإيرادات ومثلها للمصروفات
- وتتكون الإيرادات مما يلي :
- (أ) ٢٦٥٥٤ جنيهاً ريع الأوقاف الأزهرية .
- (ب) مخصصات الأزهر والمعاهد الدينية :
- ١٥٦٥٧ جنيهاً إعانة وزارة الأوقاف .
- ٤٠٠٠ جنيهاً من وزارة الأوقاف لنشر الثقافة الإسلامية .
- ٢٧٧١٣٥ جنيهاً من وزارة المالية
- ٥٠٠٢ جنيهاً من وزارة المالية مرتب الروزنامة .
- ١٨٢٩٢ جنيهاً إيرادات متنوعة من هبات ونذور ووفورات .
- وتشمل أبواب المصروفات ما يأتي :
- ٢٤٦٧٠٠ جنيهاً ماهيات ومرتبات .
- ٩٤٩٤٠ جنيهاً مصروفات عمومية .
- ٥٠٠٠ جنيهاً نشر الثقافة الإسلامية في البلاد النائية ،
- والعناية بالبعثات الوافدة على الأزهر .

(أخذت هذه التفاصيل عن مشروع ميزانية الأزهر ، ولكن حدث بعد ذلك تعديل في المشروع الذي قدم إلى البرلمان ، حيث زيدت الميزانية إلى ٤٠٠٢٠٠ جنيهاً ، ورفعت مخصصات الأزهر من وزارة المالية إلى ٣٠٥١٢٠ جنيهاً ، ويرجع معظم الزيادة إلى زيادة المرتبات وإعانة الغلاء) .

٢ — الأساتذة والطلاب

(١) في سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٥) بلغ عدد الشيوخ (المدرسين) بالأزهر — ٣٦١ شيخاً من مختلف المذاهب .

وبلغ عدد الطلاب ١٠٧٨٠ طالباً من مختلف الأروقة والحارات . وهو إحصاء تقريبي ، إذ كان يوجد في هذا الوقت بالأزهر كثير من الطلبة والمجاورين غير المقيدين .

(راجع الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١٤)

(٢) في سنة ١٨٩٢ ، ورد في تقرير رسمي أنه يوجد بالأزهر ١٧٨ شيخاً و ٨٤٣٧ طالباً . وقد يرجع هذا الفرق الواضح بين هذا الإحصاء وسابقه إلى أن التقرير الرسمي عنى بإحصاء الأساتذة الرسميين والطلبة المقيدين دون غيرهم .

(٣) في سنة ١٨٩٨ ، كان بالأزهر ١٩١ شيخاً ، و ٨٢٤٦ طالباً .

(٤) في سنة ١٩٠٢ ، كان بالأزهر ٢٥١ شيخاً ، و ١٠٤٠٣ طالباً .

(٥) في سنة ١٩٠٦ كان بالأزهر ٣١٢ شيخاً و ٩٠٦٩ طالباً .

(راجع مقال الدكتور فولرز عن الأزهر في دائرة المعارف الإسلامية)

بعد تنفيذ قانون سنة ١٩١١ .

(٦) في سنة ١٩١٨ بلغ عدد طلبة الأزهر والمعاهد الدينية الملحقه به ١٥٨٣٦ طالباً .

- (٧) وفي سنة ١٩٣٧ بلغ عددهم ١٠٨٧٦ طالباً .
 (٨) وفي سنة ١٩٣٨ بلغ عددهم ١١٧٩٠ طالباً منهم ٧٠٠ طالب من الغرباء من مختلف الأمم .

سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢

بلغ عدد طلاب الجامعة الأزهرية (الأزهر والمعاهد الدينية) بجميع أقسامها الابتدائية والثانوية والعالية في العام الدراسي الحاضر (سنة ١٩٤١ — ٤٢) : ١٤١٦٦ طالباً موزعة كما يأتي :

بالأقسام الابتدائية	٥٤٦٦	طالباً
بالأقسام الثانوية	٣٨٥١	»
بالأقسام العامة بالمعاهد	١٨٩٣	»
بالأقسام العالية بالكليات	٢٠٧٩	»
بأقسام الإجازات بالكليات	٦٤٢	»
بأقسام تخصص المادة بالكليات	١٧٨	»
بقسم تخصص التدريس للمكفوفين	٧	طلاب

وبلغ عدد الطلاب بكلية الشريعة بأقسامها	١٢٤٤	طالباً
وبكلية اللغة العربية بأقسامها	٦٤٩	»
وبكلية أصول الدين بأقسامها	١٠١٣	»
وجملة طلاب الكليات الثلاث	٢٩٠٦	

الطلاب الغرباء في الكليات والمعاهد

ينتسب منهم بكلية الشريعة على اختلاف جنسياتهم وأروقتهم في مختلف السنين ١٧١ طالباً — وبأقسام التخصص بها ٢٤ طالباً فالمجموع ١٩٥ طالباً .

وبكلية اللغة العربية ٣٨ ، وبأقسام التخصص بها ١٠ فالمجموع ٤٨ طالباً .

وبكلية أصول الدين ٧٢ ، وبأقسام التخصص بها ٧ ، فالمجموع ٧٩ طالباً .

وينتسب منهم بالقسم الابتدائي بمعهد القاهرة	٦٣	طالباً
وبالقسم الثانوي بالمعهد المذكور	٤٦	»
وجملتهم .	١٠٩	»

وبلغ طلاب القسم العام من مختلف الأروقة المصرية ٨٤٠ طالباً
ومن مختلف أروقة الغرباء ٣٩٤ »

طلبة المعاهد الدينية

يبلغ عددهم بمعاهد القاهرة والإسكندرية وطنطا والزقازيق وشبين الكوم وأسيوط ودسوق ودمياط وقنا ٩٣١٧ طالباً .

منهم ٥٤٦٦ بالقسم الابتدائي و ٣٨٥١ بالقسم الثانوي .
وبلغ طلاب القسم العام ١٨٩٣ ، منهم ١٣٣٥ من الطلبة

المصريين ، و ٥٥٨ من الطلبة الغرباء^(١) .

٣- جرایة الخبز

لبثت جرایة الخبز عصوراً توزع على شيوخ الأزهر وطلابه من ربيع الأوقاف المرصودة لذلك ، وفي سنة ١٩٢٩ صدر قانون بإلغاء جرایة الخبز ، واستبدالها بالنقود ، ونص فيه على أن يحدد ثمن الخبز مرتين في العام في يناير وفي يوليه بواسطة لجنة خاصة .
وفيما يلي بيان بأنصبة الشيوخ والطلاب من مخصصات بدل الخبز (الجرایة) .

يوزع يومياً ثمن ثلاث أقات من الخبز لكل عالم أستاذ أو مدرس و يبلغ متوسط ثمن هذا القدر في كل شهر للأساتذة في القاهرة نحو ١٥٦ قرشاً ، وفي معاهد الأقاليم نحو ١٠٨ قرشاً .

و يصرف لرؤساء الكليات وشيوخ المعاهد ضعف هذا القدر ، أعني ثمن ست أقات لكل منهم في اليوم .

أما الطلاب فإنه يصرف ثمن ثلاثة أرباع أقة في اليوم لكل طالب من طلاب التعليم العالي ، و يبلغ متوسط ذلك في الشهر نحو ٤٥ قرشاً لكل منهم .

و يصرف ثمن نصف أقة في اليوم لكل طالب من طلاب

(١) تفضلت مشيخة الأزهر فأمدتني بهذه الاحصاءات الأخيرة عن الطلاب وذلك عن يد صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون .

الأقسام الثانوية ، ويبلغ متوسط ذلك في الشهر نحو ٣٠ قرشاً .
ويصرف ثمن ثلاثة أثمان أقة لكل طالب في السنة الرابعة
الابتدائية ويبلغ متوسط ذلك في الشهر نحو ٢٠ قرشاً .
وقد ألغيت الجراية لمن عدا هؤلاء من الطلاب .
وبلغت مخصصات الجراية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية في سنة
١٩٤٠ : ٣٤٠٠٠ جنيهاً^(١) ، يصرف منها ٢٤٢٠٠ جنيهاً للقسم العام
بالأزهر والكليات وأقسام الإجازات والتخصص ومعهد القاهرة ،
و ١٣٥٠ جنيهاً لمعهد الإسكندرية ، و ٢١٠٠ لمعهد طنطا ، و ١٤٥٠
لمعهد أسيوط ، و ٢٧٠٠ لمعهد الزقازيق ، و ١٢٥٠ لمعهد شبين
الكوم ، و ٣٠٠ لمعهد دسوق ، و ٤٥٠ لمعهد دمياط ، و ٢٠٠ لمعهد قنا

(١) بلغت هذه المخصصات في سنة ١٩٤١ — ٤٢ مبلغ ٤٦٠٠٠ ،
وذلك بسبب ارتفاع أثمان الخبز .

ثبت المراجع

- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، واتعاظ الخنفاء
بأخبار الأئمة الخلفاء ، والسلوك في دول الملوك للمقريزي .
كتاب قضاة مصر لابي عمر الكندي ، وذيله لابن زولاق .
أخبار سيديويه المصري لابن زولاق . أخبار مصر لابن ميسر .
الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي .
كتاب الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى .
صبح الأعشى للقلقشندي . تاريخ ابن خلدون .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي .
التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوى .
وفيات الأعيان لابن خلكان . بدائع الزهور لابن إياس .
ذخيرة الأعلام لأحمد بن سعد الدين العمري (مخطوط) .
الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين
الغزى (مخطوط) . عجائب التراجم والآثار للجبرتي .
الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .
تاريخ الجامع الأزهر للسيد مصطفى يريم (١٣٢١ هـ) .
تقويم النيل لأمين باشا سامى .
مذكراتى في نصف قرن لأحمد شفيق باشا .
دائرة المعارف الاسلامية — مقال الأزهر بقلم الدكتور فولرز .

فہر س

صفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول : القاهرة المغزية والجامع الأزهر ... ١١

الفصل الثاني : المعز لدين الله ووزيريه جوهر ... ٣١

الفصل الثالث : البداية الجامعية ... ٤٠

الفصل الرابع : الأزهر ودار الحكمة ... ٤٩

الفصل الخامس : نظم الدراسة والحلقات الجامعية ... ٦٠

الفصل السادس : المواد والكتب والأساتذة ... ٧٦

الفصل السابع : المناسبات الدينية والاجتماعية ... ٩٤

الفصل الثامن : الأزهر في عصور السلاطين والعصر التركي ١١٢

الفصل التاسع : إدارة الجامع الأزهر ومشيجته ... ١٢٥

الفصل العاشر : عصر التطور والإصلاح ... ١٤٢

وثائق وإحصاءات — وقفية الحاكم على الأزهر ... ١٦٠

الإجازات العلمية ١٦٤ — إحصاءات عامة عن الأزهر ١٦٧

ثبت المراجع ... ١٧٤

فهرس الصور

٣	...	...	...	...	...	الجامع الأزهر (الحرم الداخلي)
٢١	...	...	...	...	...	عقود الجامع الأزهر
٢٣	...	...	...	...	...	محراب الأزهر القديم
٢٧	...	...	...	...	...	منارات الأزهر
٩٩	...	...	...	...	...	جامع الحاكم بأمر الله

DE DODGE

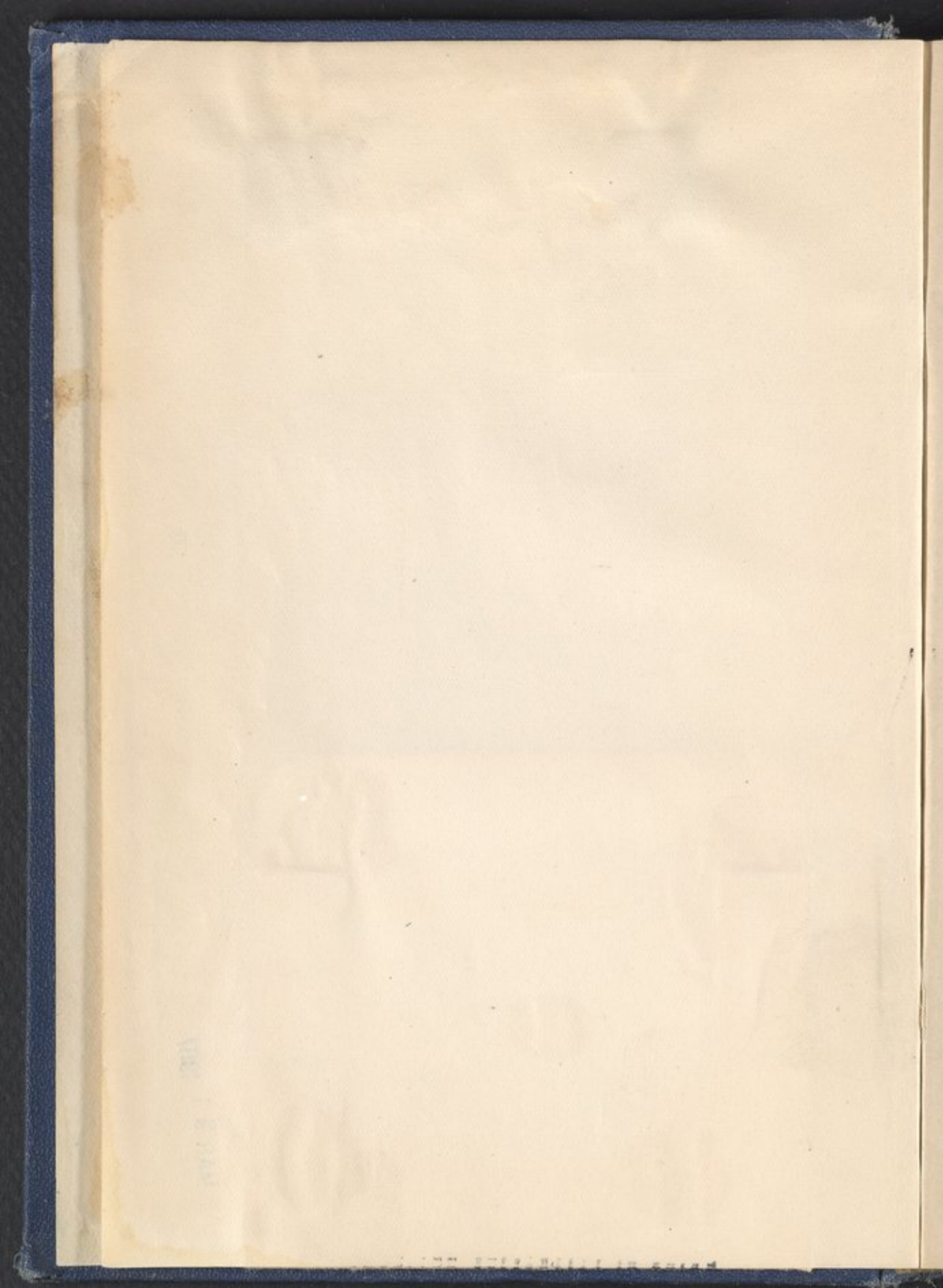
3rd. Tale N = 71

491

- 5
- 11
- 14
- 23
- 25
- 27
- 28
- 31
- 32
- 33
- 34
- 35
- 36
- 37
- 38
- 39
- 40
- 41
- 42
- 43
- 44
- 45
- 46
- 47
- 48
- 49
- 50
- 51
- 52
- 53
- 54
- 55
- 56
- 57
- 58
- 59
- 60
- 61
- 62
- 63
- 64
- 65
- 66
- 67
- 68
- 69
- 70
- 71
- 72
- 73
- 74
- 75
- 76
- 77
- 78
- 79
- 80
- 81
- 82
- 83
- 84
- 85
- 86
- 87
- 88
- 89
- 90
- 91
- 92
- 93
- 94
- 95
- 96
- 97
- 98
- 99
- 100

DE DODGE

- 1
- 2
- 3
- 4
- 5
- 6
- 7
- 8
- 9
- 10
- 11
- 12
- 13
- 14
- 15
- 16
- 17
- 18
- 19
- 20
- 21
- 22
- 23
- 24
- 25
- 26
- 27
- 28
- 29
- 30
- 31
- 32
- 33
- 34
- 35
- 36
- 37
- 38
- 39
- 40
- 41
- 42
- 43
- 44
- 45
- 46
- 47
- 48
- 49
- 50
- 51
- 52
- 53
- 54
- 55
- 56
- 57
- 58
- 59
- 60
- 61
- 62
- 63
- 64
- 65
- 66
- 67
- 68
- 69
- 70
- 71
- 72
- 73
- 74
- 75
- 76
- 77
- 78
- 79
- 80
- 81
- 82
- 83
- 84
- 85
- 86
- 87
- 88
- 89
- 90
- 91
- 92
- 93
- 94
- 95
- 96
- 97
- 98
- 99
- 100



ARY

NOV '71

LG
511
C45
I 5
1942

MAR 31 1987

